

مصنوع فنفح الطيب

الدكتور / أحمد عبد الغنيز
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٨٨

دار الثقافة والنشر والتوزيع
مشاريع سيف الدين المراني - الغزالة
القاهرة ت / ٩٠٤٦٩٦

إهداء

إلى ولدي :

عمر وسوسن

حتى لا ينسيا وطنهما ،

مصر .

المقدمة

لعل من أحدث مجالات الدرس فى الأدب المقارن تتبع الصورة الكلية أو الجزئية لبلد من البلدان فى أدب ما أو فى أعمال مؤلف من المؤلفين وعلى الباحث فى هذا المجال أن يضع يده على الوسيلة التى تكونت بها هذه الصورة ، وهى غالبا ما تكون عن طريق الرحالة والمهاجرين . وقد تلعب عواطفهم وميولهم دورا فى تشكيلها تبعا لما شعروا به أثناء رحلتهم أو هجرتهم من بغض أو حب لذلك البلد ، وكذلك تبعا لما شاهدوه منه (١) .

ولا نريد بهذه التوطئة الموجزة أن نقول بأن دراستنا هذه هى من صميم الأدب المقارن ، فهى تفتقد عنصرا هاما هو عنصر اختلاف اللغة الذى وضعه المنظرون أساسا لبدء المقارنات . ولكن اذا كنا ننظر الى الاندلس باعتبارها مزيجا حضاريا من مجتمعين شرقى وغربى ، عربى وأوروبى ، مسلم ومسيحى ، واذا كنا نرى لها خصوصيتها وتفردا فاننا نسمح لأنفسنا بتناول عناصر التلاقى والاختلاف ، الاتصال والانفصال بينها وبين مشرقنا العربى .



(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع الكتاب الرائد فى اللغة العربية للدكتور محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن . دار العودة ودار الثقافة . بيروت . الطبعة الخامسة (بدون تاريخ) ص ٤١٩ - ٤٢٨

١ - المقرئ وكتابه

« مصر في نفح الطيب » موضوع أردنا به الكشف عن جانب قد يكون طريفاً ومفيداً - في نفس الوقت - في مثل هذا الكتاب ، وهو ذكر بلد ما فيه ، والبلد في هذه الحالة هو مصر ، فثمة كثيرون ممن ذكرهم المؤلف من الأندلسيين قد نزلوا مصر ، يتردد ذكرها بذكرهم ، والحديث عن دراستهم بالقاهرة أو الاسكندرية أو غيرهما من المدن المصرية . بل ان منهم من جاء الى مصر ليتعلم ثم عاد الى موطنه : الأندلس ، ومنهم كذلك من تولى القضاء بالقضاء بالقاهرة أو الاسكندرية . واذا أضفنا الى ذلك ان كثيراً من المصريين زاروا الأندلس ، وان مجالس الشعراء والأدباء المعائدين أو الوافدين الى مصر كانت تنصب الأسمار والأشعار والأفكار لعرفنا أهمية هذه الدراسة والهدف الذي تطمح اليه .

أما لماذا اختيرت مصر بالذات في هذا الكتاب بعينه فذلك لما ورد عن صاحبه من أنه كان قد حدث تلاميذه بدمشق عن لسان الدين ابن الخطيب ومكانته فطلبوا منه وضع كتاب عنه ، ووعد المقرئ تلميذه أحمد الشاهينى بالشروع في ذلك لدى وصوله الى القاهرة المعزية ، وان الشاهينى كتب رسالة الى استاذة بمصر يطلب منه فيها الوفاء بوعده ، وقد كان له ذلك . وأيا كانت الحقيقة حول الدافع الى تأليف الكتاب فان المؤكد - كما يذكر المقرئ نفسه - أنه شرع « بعد الاستقرار بمصر في المطلوب ، وكتبت نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكت في ترتيبه أحسن أسلوب ، وعرضت في سوقه كل نفيس وغريب ، من الغرب الى الشرق مجلوب ، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى ، وتعرف الأفكار انه غير مجتوى ٠٠٠٠ الخ » (١) .

(١) المقرئ (الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق ، الدكتور احسان عباس . دار صادر . بيروت ١٩٦٨ . ٩٩/١

وإذا كان المقرئ قد توقف عن التأليف بعد ذلك لحين ، فإنه استأنف تأليف كتابه بعد ورود رسالة من ابن شاهين تحثه على المضي في التأليف (٢) .

وقد كان المؤلف يزعم أن يسمى كتابه « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب » . ولما رأى أن مادته قد اتسعت لتشمل الأندلس أدبا وتاريخا ، عمد إلى تغيير عنوان الكتاب فصار : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب (٣) » ، وهكذا جاء الكتاب وقد اشتمل على قسمين : قسم خاص بالأندلس في ثمانية أبواب ، يبدأ بوصف جزيرة الأندلس وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، ثم يتحدث عن مكانة الدين في الأندلس ليمضي بعد ذلك إلى ذكر قرطبة حاضرة الخلافة ومجدها ، ثم يخصص بابا للتعريف بمن رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق وبابا آخر في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ، وينتهي هذا القسم بسقوط الأندلس أو ما يسميه « تغلب العدو الكافر على الجزيرة » . ثم يأتي القسم الثاني ليدور كله حول لسان الدين بن الخطيب ، وإن كان القسم الأول لم يخل منه باب من كلام لسان الدين بن الخطيب (٤) .

هذا عن الكتاب ، أما الكاتب (٥) فهو أحمد بن محمد المقرئ

(٢) انظر الرسالة والحديث عنها وعن تأليف الكتاب فسى :

النفح ٩٩/١ - ١٠٦

(٣) انظر النفح : ١١٧/١

(٤) انظر منهج الكتاب وتقسيمه إلى أبواب كما ذكره مؤلفه في

مقدمته : ١١٢/١ - ١١٧

(٥) اعتمدنا في هذا التعريف على مقدمة الدكتور احسان عباس

لتحقيقه المذكور . انظر الصفحات من ٥/١ إلى ١٠/١

القرشي ، كنيته أبو العباس ولقبه شهاب الدين ، ومقرة مسقط رأسه واليه ينتسب ، أما هو فقد ولد في مدينة تلمسان عام ٩٨٦ هـ ، تلقى بها دروسه الأولى ، ثم ارتحل عنها أول مرة قاصدا فاس عام ١٠٠٩ هـ ثم عاد في آخر العام التالي ، ولكنه سافر الى فاس في عام ١٠١٣ هـ . وبقي فيها حتى عام ١٠٢٧ هـ حيث قرر في ذلك الحين الرحيل الى المشرق ، فمضى اليه مارا بتونس وسوسة والاسكندرية والقاهرة فالحجاز حيث اعتمر ، ثم أدى فريضة الحج وزار قبر الرسول بالمدينة المنورة . وقفل عائدا الى مصر في شهر محرم من عام ١٠٢٩ هـ ، ثم زار بيت المقدس في نفس ذلك العام ، ولم تنقطع رحلاته للأماكن المقدسة في مكة والمدينة .

وفي مدينة فاس قام المقرئ بالامامة والفتوى والخطابة ، وصار عالما يشار اليه بالبنان ، ولكن المغرب وفاس بالذات كانا يتعرضان لظروف متقلبة وأحوال مضطربة لا تكفل الهدوء والأمن للأهلين بسبب الصراع على الحكم الذي أعقب وفاة المنصور ، الى جانب الغزوات الخارجية التي كانت تتعرض لها المدينة من الاسبان والبرتغاليين .

وفي سنة ١٠١٦ هـ كان المقرئ يشهد - عن كثب - انقطاع آخر صلة للعرب ببلاد الأندلس حين تفرقت الجالية الأندلسية تطلب لها ماوى في سلا وتونس وغيرهما من البلاد المغربية » (٦) .

حقا ان المقرئ بهذا يمثل تلك الحلقة المفقودة بين اندحار السلطان العربى عن شبه جزيرة ايبيريا نهائيا والتقاط الحضارة العربية أنفاسها بعد هذا الموت البطيء الذى عانى منه السلطان في شبه الجزيرة فراح يتقلص شيئا فشيئا حتى انقضى الى غير رجعة ، فالمقرئ اذن خير شاهد

على ذلك العصر ، فبعد ذلك « بثلاث سنوات كان الاسبان يستولون على مدينة العرائش في المغرب بمواطاة الشيخ المأمون أحد أبناء المنصور ، ولقى هذا العمل استنكارا من الناس ، فلجأ الشيخ الى الفقهاء ليفتوه في الأمر ، لقد كان هو لاجئا عند صاحب اسبانيا يطلب منه المعونة ، فوعده بها لقاء اعطائه العرائش ، وما سمح له بمغادرة اسبانيا الا بعد ان قدم له اولاده ، رهينة حتى يفي بوعده ، فهل من حقه ان يفدى اولاده بهذا الثغر أم لا ؟ ، وكان هذا السؤال امتحانا عسيرا للمفتين فهرب جماعة منهم واختفوا عن الأنظار ، وكان المقرئ واحدا من أولئك الذين لجأوا الى الاختفاء(٧) .

هذا ما كان منه في المغرب في هذه الفترة العسيرة من تاريخ الأمة الاسلامية ، أما الآن ، فلم يبق لنا الا أن نبحت عنه في مصر ، ونلقاه على شاطئ نيلها .

ترك المقرئ الشام وأعد العدة للرحيل عن دمشق التي احبها واحب اهلها ، وطال به المقام بمصر ، فنزلت من قلبه سويداءه فاقترن فيها بفتاة من أسرة السادة الوفائية ، ولكن هذا القران كان قصير العهد ، فلم يكلل زواجه بالتوفيق مما اضطره الى الانفصال عنها ، فطلقها ليأوى الى وحدته وآلامه . وفي هذه الفترة يصف لنا الخفاجي ما حدث له فيقول : انه وجد بمصر الحسد والنفاق ، وتجارة الآداب ليس لها بسوقها نفاق(٨) .

وعاود المقرئ الحنين الى الشام فعقد العزم على ترك مصر والعودة اليه ، ولكن يد القدر لم تمهله حيث توفي في اواخر عام ١٠٤١ هـ .

(٧) النفح ٧/١ ، عن الاستقصاء ٦ : ٢١

(٨) النفح ١٠/١ ، عن ريحانة الالباء : ١٧٥/٢

بين هذا المد والجزر ، بين هذا الحب والبغض ، بين كل هذه
العواطف المتضاربة يقف صاحب النفح ، فنراه يصف لنا أولا رحلته
البحرية الى مصر المحروسة التى وصلها بعد التجارب والضرب فى
الفيافى والمجاهل ، فتشفى ادواءه وتبرىء آلامه :

« ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجوب
فياف مجاهل يضل فيها القطا عن المناهل ، الى مصر المحروسة ،
فشفينا برؤيتها من الأوجاع وشاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجز عن
وصفها القوافى والأسجاع » (٩) .

وما ان يحط الرجال بمصر حتى يعصف به الاحساس بالغربة ،
والنسيان الذى يعانى منه عظماء الرجال حين يصلون - لأول وهلة -
الى مكان جديد ، فينتابهم شعور بجهل الآخرين لقدرهم ، فيركن الواحد
منهم الى التجرد والزهد عن المعالى والشهرة . يذكر لنا المقرئ نفسه
هذا فيقول : « وكما قلت عندما صرت الى الاغتراب والت :

تركت رسوم عزى فى بلادى وصرت بمصر منسى الزسوم
ورضت النفس بالتجريد زهدا وقلت لها : عن العلياء صومى
مخافة ان ارى بالحرص ممن يكون زمانه أحد الخصوم » (١٠)

وفى هذا الصدد يستشهد المقرئ بشعر كثير لشعراء آخرين ، فى ترك
الحمى والأسف على ماضى الزمان .

ويمضه البعد عن الاحباب بعد ان استقر بمصر ، ويرى النيل قوة

(٩) النفح ٣٥/١

(١٠) النفح ٧٤/١

لا تغلب ، استحوذت على لبه حتى انسته أحبابه بدمشق ، فيتذكر ما قيل
في ليالى الشام وأيامه العذبة التى تحولت الى عذاب ونار ذاكية
مع هذا الجوى والنوى والشجو والأرق : « فان انشد لسان الحال
فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال (يقصد دمشق) :

يا غائبا قد كنت احسب قلبه بسوى دمشق واهلها لا يعلق
ان كان صدك نيل مصر عنهم لا غرو ، فهولنا العدو الأزرق

أتيت فى جوابه ، بقول بغض من برح الجوى به :

لله دهر جمعنا شمل لذاته بالشام أعذب من أمن على فرق
مرت لياليه والأيام فى خلص كأنما سلبته كف مسترق
ما كان احسنها لولا تنقلها من النعيم الى ذاك من الحرق
رق العذول لحالى بعدها ورثى لى فى الجو والنوى والشجو والأرق

ويعصف الشوق بالمقرى الى بلاد الشام فينشد ما قيل فى الحنين
اليها ويكثر منه (١١) ، ويسلى نفسه المكروبة بالحديث الى مفتيها طالبا
من حادى الأظعان الى تلك الديار أن يحمل تحياته كذلك الى خيامها ،
ويرد عليه مفتى الشام - العمادى - الذى ذكره باسمه ، فيحى مصر

(١١) يقول المقرى متشوقا الى الشام :

« ولسان حالى الآن ينشد قول بعض الأكابر :

نحن فى مصر رهن شوق اليكم هل لديكم بالشام شوق الينا
فعجزنا عن أن ترونا لديكم .. وابيتم عن أن نراكم لدينا
حفظ الله عهد من حفظ العهد د ووفى به كما قد وفينا «

النفح : ٤٨٥/٢

مبتدئاً بالمقرى الهمام كذلك ، ولا ينسى أن يذكر مكانته العلمية الى جانب وفائه لبلاد الشام (١٢) .

وقد أمضى المقرى فى مصر عقداً ونيفاً ، وليس لهذا وحده وحسب نتحدث عن مصر فى كتابه ، بل لأن هذا العقد كان أخصب فترات حياته ، ففيه صنف نفح الطيب وتزوج من مصر ، وفى خاتمته امتدت اليه يد المنون قبل أن يبارح تراب هذه الأرض الطيبة .

* * *

(١٢) خاطب المقرى مفتى الشام بأبيات منها :

« يا حادى الأظعان نحو الشام بلغ تحياتى لتلك الخيام
وابداً بمفتيها العمادى الرضى دام به شمل الهنا فى التئام
فأجابنى بما نصه :

الى أهالى مصر أهدى السلام مبتدئاً بالمقرى الهمام
من ضاع نشر العلم من عرفه ولم يضع منه الوفا للذمام
النفع : ٢ « ٤٤٧

٢ - مدن الأندلس وأسماء المدن المشرقية

لقد درج الأندلسيون على إطلاق أسماء بعض المدن المشرقية على مدن أندلسية لأنهم وجدوا - فى بعض الأحيان - شيها بين تلك المدن فى المشرق وهذه التى يعيشون فيها فى أقصى مغرب العالم الاسلامى . ولقد قال أبو عبيد البكرى عن الأندلس بصفة عامة : « الأندلس شامية فى طبيعتها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها الخ (١) » .

وإذا كان أبو عبيد البكرى يريد أن يقول : ان الأندلس قد اجتمع لها كل جمال الدنيا وبهاؤها الذى تفرق بين الشام واليمن والهند والأهواز والصين وعدن ثم اليونان وغير ذلك ، فان إطلاق أسماء المدن المشرقية على مدن الأندلس ربما كان للسبب المشار اليه ، أو لهذا الشبه الذى ذكرناه ، أو ربما كان راجعا الى جنسية الجنود الفاتحين الذين استقروا فى هذه الأماكن فغرناطة مثلا يطلق عليها : دمشق . قال الشقندى : « أما غرناطة فانها دمشق بلاد الأندلس ... » (٢) وفى النفح : « وتسمى كورة البيرة التى منها غرناطة ، دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح ، وقيل : انما سميت بذلك لشبهها فى غزارة الأنهار ، وكثرة الأشجار ... » (٣) .

أما مدينة اشبيلية فتسمى حمص ، وقد ورد ذلك فى الشعر ، حيث قال أبو محمد عبد الوهاب المتشى :

(١) النفح : ١٢٦/١

(٢) النفح : ١٤٧/١ ، وكذلك ١٧٦/١ و ١٧٧

(٣) النفح : ١٤٨/١

« وحمص لا تنس لها تينها واذكر مع التين زياتينها

وفي بعض النسخ :

لا تنس لاشبيلية تينها واذكر مع التين زياتينها

وهو نحو الأول ، لأن حمص هي اشبيلية ، لنزول اهل حمص
من المشرق بها (٤) . وفي موضع آخر يقول المقرئ :

« واعلم أن اشبيلية لها كور جليلة ، ومدن كثيرة ، وحصون
شريفة ، وهى من الكور المجندة ، نزلها جند حمص ولواؤهم فى المينة
بعد لواء جند دمشق » (٥) .

وفي معرض التفاخر بين مدن الأندلس فى رسالة أبى بحر صفوان
ابن ادريس الى الأمير عبد الرحمن ، وهو ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن
ابن على نجد بلنسية تشبه نفسها برصافتها وجسرها بمدينة بغداد بما فى
ذلك من اشارة الى قول على بن الجهم : « عيون المها بين الرصافة
والجسر ... » فقد ورد على لسان هذه المدينة فى هذا المعنى :
« ... فلى المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنات التى تلقى اليها الآفاق يد
الاستسلام ، وبرصافتى وجسرى اعارض مدينة السلام ... » (٦) .

ونستطيع أن نعرف الى أى مدى كان العرب يستلهمون بلدان المشرق
ومدنه فى تسميتهم لمدن الأندلس من ذلك التقسيم الذى صنعه أبو الخطار

(٤) النفح : ١٥١/١ ، ١٥٢

(٥) النفح : ١٥٨/١

(٦) النفح : ١٧٤/١

حسام بن ضرار الكلبى الذى قدم اليها من قبل حنظلة بن صفوان عامل افريقية عند ما شبت الفتنة فى ولاية ثعلبة بن سلامة الجذامى الذى كان متعصبا ليمانيته ، وعندما جاء ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبى حمل على عاتقه هذه المهمة اذ « كثر أهل الشام عنده ، ولم تحملهم قرطبة ، ففرقهم فى البلاد ، وانزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها ، وسماها دمشق وأنزل أهل حمص أشبيلية وسماها حمص ، وأهل قنسرين جيان ، وسماها قنسرين وأهل الأردن رية ومالقة ، وسماها الأردن . وأهل فلسطين شذونة - وهى شريش - وسماها فلسطين ، وأهل مصر تدمير ، وسماها مصر ... » (٧) .

وتدمير هذه هى مرسية ، وقد أطلق عليها اسم مصر للأمريين : أولهما هو ما ذكرناه من نزول أهل مصر بها ، وثانيهما لوجوه الشيه بينها وبين مصر فى انبساط أرضها ، وفيضان النهر الذى يغمرها فى وقت معين من العام ، وزراعتها بنفس طريقة زراعة الأرض فى مصر . يقول المقرئ :

« ومن كور الأندلس الشرقية تدمير ، وتسمى مصر أيضا لكثرة شبهها بها ، لان لها أرضا يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر ، وصارت القصبة بعد تدمير مرسية ، وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها ، ولها نهر يصب فى قبلتها » (٨) .

* * *

(٧) النفح : ٢٣٧/١

(٨) النفح : ١٦٤/٦

٣ - صورة مصر

إذا كان الاندلسيون قد أطلقوا اسم مصر على تدمير أو مرسية لوجوه الشبه التي رصدها المقرى بينها وبين هذه المدينة من ناحية الأرض المنبسطة وفيضان النهر في وقت معين من العام مما يشبه فيضان نهر النيل في ذلك الحين ، وزراعة هذه الأرض الأندلسية بنفس الطريقة التي كانت تزرع بها الأرض في مصر . . . الخ ، وإذا كان الذين نزلوا في هذه المنطقة من المصريين الذين دخلوا مع الفتح العربى فإن هذا كله يبين في جانب منه مدى الاهتمام بمصر في الأندلس .

وإذا تتبعنا الذين ألفوا شعرا عن مصر في الأندلس فإننا نستطيع أن نحصرهم في عدة فئات نرتبها على النحو التالى تبعا لكثرة الشعر المنسوب الى كل فئة : فعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى الاندلسيون والمغاربة ، يليهم المصريون ، ثم غيرهم من الشاميين والعراقيين وأضرابهم . ثم تأتى مجموعة من الشعر غير المنسوب الى قائل . ولعلنا اذا نظرنا الى كل فئة من هذه الفئات على حدة بنية استخلاص صورة عامة لمصر في « نفح الطيب » ، فإننا لا نستطيع ذلك ، لأن ما سيتجمع لدينا هو عدة صور عن مصر قد تختلف من فئة الى أخرى ، أو قد تتفق ، وقد آثرنا الا نصنع هذه التجزئة لنصل الى الصورة الحقيقية الكاملة بكل أبعادها ومتناقضاتها ، فنحن نعلم أن الشاعر الواحد قد يمدح تارة ويذم تارة تبعا لحالته النفسية والوجدانية ، ومن هنا آثرنا أن نلم شتات هذه الصورة بجوانبها المتعددة من خلال الظواهر التى تقدمها لنا جميعا ، فنحن هنا لا ندرس الشعراء الذين ألفوا شعرا عن مصر وإنما نستخلص مما قالوه جوانب صورة مصر . وقد رأينا أن جوانب هذه الصورة يمكن أن تستجلى من اتجاهين أساسيين سار فيهما هذا الشعر ، أما الأول فهو الوصف الخالص والتصوير الفنى لمصر وآثارها ومعالمها . وأما الثانى فهو الوصف النفسى - إذا شئنا التعبير - أو تصوير عواطف الشعراء المتضاربة ازاء هذا كله .

- ١٥ -

(٢ - مصر في نفح الطيب)

أولاً : تصوير مصر

١ - النيل :

لعل النيل ، ذلك النهر العظيم ، الذى وهب مصر الحياة ، هو أول وأهم ما يستحوذ على انتباه الزائر لمصر ، لأول وهلة ، وهو الشيء الباقي معه اذا رحل عنها ، وهو ما يظل فى وجدان أبنائها حين يتركونها الى حين .

وهذا هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الاشبيلي الذى « يقال أن عمره ستون سنة ، منها عشرون فى بلده اشبيلية ، وعشرون فى أفريقية عند ملوكها الصنهاجيين ، وعشرون فى مصر محبوساً فى خزانة الكتب ، وكان وجهه صاحب المهديّة الى ملك مصر ، فسجن بها طوال تلك المدة فى خزانة الكتب ، فخرج فى فنون العلم اماماً ، وامتن علومه الفلسفة والطب والتلحين . . . » (١) هذا هو أبو الصلت الذى رحل من الأندلس الى مصر والى مدينة الاسكندرية بالذات أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٢) ، يقف أمام منظر النيل حين وصل الى

(١) النفح ١٠٥/٢

(٢) . النفح ٤٩٦/١ . انظر فيه هامش احسان عباس واشارته.

الى ترجمة أبى الصلت أمية فى :

ابن أبى أصبغة ٥٢/٢

معجم الأدباء ٥٢/٧

تحفه القادم ص ٣

تاريخ الحكماء ص ٨٠

• وفيات الاعيان ٢٢٠/١

• والمغرب ٢٥٦/١

القاهرة ، ويصف حاله من الزيادة والنقصان ، فهو فى حالة الفيضان وهو
محمل بالطمى المشوب بالحمرة يحكى لون الورد ، فاذا نقص وتغير لون
مائه فان صفاءه وهدوءه يشبهان صفاء مائه وهدوءه :

« ولله مجرى النيل منها اذا الصبا ارتنا به من مرها عسكرا مجرا
اذا زاد يحكى الورد لونا، وان صفا حكى ماءه لونا، ولم يعد نشرنا » (٣)

والحديث عن احمرار النيل وتغير لونه كثير عند الشعراء ، واذا

وانظر قول ابن سعيد عنه : « وكان قد خرج من اشبيلية فصحب
بالمهدية ملوكها الصنهاجيين ، وتوجه فى رسالة الى مصر ، فسجن فى
القاهرة فى خزانة البنود ، وكان فيها خزائن من اصناف الكتب ، فاقام
بها نحو عشرين سنة ، فخرج منها وقد برع فى علوم كثيرة ، من حديثة
وقديمة . وصنف كتاب الحديقة على منزع كتاب اليتيمة ، فى فضلاء
عصره ، وصنف الرسالة المصرية ، وصنف فى الطب والتنجيم والالخان ،
وعنه اخذ اهل افريقية الالخان التى هى الآن بأيديهم . وعاد الى المهدية
فجل قدره وعظم عند ملوكها ذكره ، واعقب هنالك عقبانا بها »
المغرب ٢٦٢/١

(٣) النفح ٤٩٧/١

ذكر المقرئ هذه الأبيات أيضا فى مقدمته للكتاب ولم ينسبها الى
قائل كما يلى :
وقول آخر :

ولله مجرى النيل منه اذا الصبا ارتنا به من مرها عسكرا مجرا
بشط يهز السمهرية ذبلا وموج يهز البيض هندية بترا
اذا مد حاكى الورد لونا ، وان صفا حكى ماءه لونا ، ولم يحكه مرا »

النفح ٣٧/١

كان أبو الصلت قد شبه لون النيل أثناء الفيضان بالورد فان ابن الصاحب يشبهه بالشقيق أثناء حديثه عن فرحة الناس به ، حيث يرون فيه مصدرا للبركة والخير ، ويشبهه كذلك بالعقيق الأحمر ، فهو كهذه الاحجار الثمينة في قيمته عند المصريين :

« فرح الأنام بنيلهم اذ صار أحمر كالشقيق
وتبركوا بشروقه فكأنه وادى العقيق » (٤)

والحديث عن فيضان النيل لا يبقى خارج نفس الشاعر ، وانما يرتبط بمشاعره واحاسيسه بحيث يمثل الفيضان دمع الشاعر ، واضطراب المزج خفقان قلبه :

« انظر الى النيل الذى ظهرت به آيات ربي
فكانه في فيضه دمعى ، وفي الخفقان قلبى » (٥)

وهو نفس المعنى الذى قاله الشاعر المصرى ابن النقيب (٦) ، ولكنه اضاف اليه تفرد الصب بالهوى بعد رحيل احبابه ، والى جانب دمه الذى صار النيل كله فان خده يبكى دما ، وهو بهذا يشبه مقياس النيل :

(٤) النفج ٣٩/١

يذكر المقرئ فى نفس المعنى ابياتا غير منسوبة الى قائل :

احمر للنيل خد حتى غدا كالشقيق
وقد ترنمت فيه اذ صار وادى العقيق

النفج ٣٩/١

(٥) شعر لم ينسب الى قائل فى : النفج ٣٦/١

(٦) يقول عنه د. احسان عباس : « هو الحسن بن شاور ناصر

الدين ابن النقيب (- ٦٨٧٠) أحد شعراء مصر المشهورين بالتورية وأكثر

شعره مقطعات (الفوات : ١ : ٢٣٢) « النفج ٣٧/١

« الصب من بعدهم مفرد ودمعه النيل وتعليقه
وخده لما بكاهم دما مقياسه والدمع تخليقه » (٧)

وهكذا تتسع الصورة شيئا فشيئا فهي لا تقف عند تغير لون ماء
النيل الى الحمرة أثناء الفيضان ، وانما تمتد لتعطى صورة تفصيلية
لهذه العجيبية البكر التى لم يسمع احد بمثلها ، عجيبة النيل الذى يلقي
الأرض فى الماء مسلما عليها ثم يودعها ، فهو ما يلبث أن يفيض على
الأرض حتى ينحسر عنها ويودعها ، وهنا يراه الشاعر الى جانب هذه
الصورة فى صورة الهلال الذى يستمر فى الزيادة وما ان يصل الى الاكتمال
ويصير بدرا حتى يتراجع ويتناقص شأنه شأن النيل تماما :

« واهل لهذا النيل ، اى عجيبة بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى الماء وهو مسلم حتى اذا ما مال عاد يودع
مستقبل مثل الهلال فدهسه ابدأ يزيد كما يزيد ويرجع » (٨)

اما ابراهيم بن عبدون فيرى فيضان هذا النيل أو مده يجيء بالمسك
والصندل ، ولعله يشير بذلك الى الطمى الذل لم يعد يمثل بالنسبة له
اللون الأحمر وحسب ، وانما تجاوز ذلك الى عقب المسك والصندل ،
أما البدر الذى ينعكس ضوءه على أمواجه فيراه متموجا تموج البرق
فى السحاب المسبل ، ويرى أضواء المصابيح على جانبيه النيل كأنها تلك
النجوم الزهر فى ليل كثيف الظلمة ، ولكنه يشبه الرياض بانبثاق أنوارها
من الزهر :

« والنيل بين الجانبين كأنما صدئت بصفحته صفيحة صيقل

(٧) النفح ٣٨/١ و (الفوات : ١ : ٢٣٤) .

(٨) لم ينسب لقائل . انظر :

النفح ٣٧/١

يأتيك من كدر الزواجر مده بممسك من مائه ومصنـدل
فكان ضوء البدر في تمويجه برق تموج في سحاب مسبل ..
وكان نور السرج من جنباته زهر الكواكب تحت ليل اليل
مثل الرياض مفتقا أنواره تبدو لعين مشبه وممثل «(٩)

* * *

٢ - النيل وجنة الخلد :

إذا كان الشعراء قد انبهروا بالنيل فانهم دائما ينظرون اليه كجزء
من المنظر الطبيعي العام الذى يمتد على هذه الأرض فتبدو فى أحلى
صورها وأبهـاها ، وقد تراوح انفعال الشعراء بهذاء الجمال بين التصنع
والمباشرة أو التعبير التلقائى ، ثم محاولة خلق صورة فنية فيها قدر من
الابداع . أما الجانب الأول ، وهو الذى يمثل التصنع ، فنضرب
له مثالا بقول ابن جابر الأندلسى (١٠) :

« ما زلت اسند من محاسن أرضها خبرا صحيحا ليس بالمقطوع
كم مرسل من نيلها ومسلسل ومدبج من هضبها المرفوع »(١١)

(٩) النفج ٣٩/١

(١٠) ورد فى هامش د . احسان عباس . النفج ٣٨/١ : « ابن جابر :
محمد بن أحمد بن على بن جابر الأندلسى الأعـمى (- ٧٨٠) صاحب
بديعية العميان . هاجر مع صاحبه الرعينى الى بلاد الشام ، وله
شرح على ألفيه ابن مالك وآخر على ألفيه ابن معطى (انظر الدور
الكامنة ٣ : ٣٣٩ ونكت الهميان : ٢٤٤ والوافى ٢ : ١٥٧ وبغية
الوعاة : ١٤ وغاية النهاية ٢ : ٦٠) .

(١١) النفج ٣٨/١

ومن الواضح أنه يستخدم مصطلحات الحديث في ذكر الخبر الصحيح والمقطوع والمرسل والمسلسل والمدبج والمرفوع ، في تورية مفتعلة تضم كل هذه المصطلحات .

أما المباشرة فنراها في قول أحمد بن فضل الله العمري (١٢) :

« لمصر فضل باهر بعيشها الرغد النضر
في سفح روض يلتقى ماء الحياة والخضر » (١٣)

وإذا كانت المباشرة تبدو عنيفة في فضل مصر الباهر وعيشها الرغد النضر إلا أنها تخف قليلا في البيت الثاني لترتفع الى سفح الروض الذي يمثل أرض مصر حيث يلتقى ماء الحياة الممثل في النيل ، والخضر ، وهي الأرض الخصبة الخضراء على جانبيه . وتظل هذه المباشرة في التقلص حتى تصل الى ما يسميه البلاغيون « التشبيه البليغ » ومنه تبدأ صورة فنية كاملة رسمها ابن ناهض لمصر التي صارت الجنة :

« شاطئ مصر جنة	ما مثلها في بلد
لا سيما مذ زخرفت	بنيلها المطرد
والرياح فوقه	سوابغ من زرد
مسرودة بما مسها	داودها بمبرد
سائلة وهو بها	يرعد عارى الجسد
والفلك كالأفلاك بيـ	ن حادر ومصعد » (١٤)

(١٢) ورد في هامش د . احسان عباس . النفح ٣٧/١ : أحمد
ابن فضل الله العمري شهاب الدين (٧٤٩ -) صاحب مسالك الأبصار
(انظر ترجمته في الدور الكامنة ١ : ٣٣١ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٣٣٤) .

(١٣) النفح ٣٧/١

(١٤) النفح ٣٥/١

في هذه اللوحة يتحول شاطئ مصر الى جنة لا نظير لها في اى بلد في العالم ، ثم تأتى تفاصيل هذه اللوحة ، فالجنة لا بد لها من نهر يزينها هو النيل ، والنيل تداعبه الرياح فتبدو تجاعيد المياه كأنها الدروع الحديدية ، وعلى الرغم من أنها دروع الا أن داود الذى اشتهر بصنعها لم يمسسها ولا يد له فيها ، ومع ذلك فان الشاعر يستوحى الكلمات المتصلة بصنعة نبي الله داود مثل « سوابغ » ، « مسرودة » وهى مأخوذة من قوله تعالى في سورة سبأ ي ٣٤ « أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا » ، ثم تكتمل الصورة بأن هذه السوابغ سائلة والنيل بها يرتعد عارى الجسد ، أما العنصر الأخير في اللوحة فهو الفلك (السفينة) التى تشبه الأفلاك وهى تنحدر وتصعد ، فهى تسير فى الماء كما تسير تلك فى السماء .

وهكذا يفيض النيل من جنة الخلد على الترع التى تهب فيها الأرواح مثلما تهب الرياح فالنيل واهب الحياة للبشر ، وهو حينما يزيد لا يزيد ماء وانما أرزاقا وأرباحا ، هذا النيل العجيب حلو الشمائل ، اصطففت على ضفتيه أدواح الأشجار كما فى هذه الصورة التى يعرضها ابن خروف الشاعر ، وهو غير النحوى (١٥) :

(١٥) ورد فى هامش د . احسان عباس : النفح ٦٤٠/٢ : « المسد على بن محمد بن على بن محمد المشهور بابن خروف وبالدريدنة ، لـ . ترجمة فى الذيل والتكملة : ٣١٩/٥ ، وصلة الصلة : ١٢٢ والتكملة رقم ١٨٨٤ ووفيات الأعيان ٢٢/٣ وبرنامج الرعينى : ٨١ وجذوة الاقتباس : ٣٠٧ ومعجم الأدباء ٧٥/١٥ ، وهذا هو ابن خروف النحوى الحضرمى الاشبيلى الذى توفى باشبيلية سنة ٦٠٩ ، أما الشاعر فان اسمه على بن محمد بن يوسف بن خروف القرطبى وله ترجمة فى صلة الصلة : ١١٤ والتكملة رقم ١٨٩٤ ، والذيل والتكملة ٣٩٦/٥ ومسالك الأبصار =

« ما أعجب النيل ما احلى شمائله فى ضفتيه من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فياض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا وانما هى أرزاق وأرباح » (١٦)

* * *

٣ - النيل والفسطاط :

أكثر من ذكر الفسطاط هو ابن سعيد صاحب كتاب المغرب فى حلى
المغرب وهو أشهر كتبه ، وفيه ترجم لنفسه ، وذكر ميلاده ، بغرناطة
ورحلاته مع أبيه فى بر الأندلس وبر العدو والغرب الأوسط وأفريقية
والاسكندرية ثم القاهرة وحلب وذكر حجه فى نفس السنة التى رحل فيها الى
حلب وهى سنة ٦٤٧ (١٧) .

٤٨٠/١١ ، وهذا هو المقرئ يخلط بين الاسمين فيترجم للشاعر تحت
اسم النحوى ، وقد وقع فى هذا الخلط ابن شاعر فى الفوات ١٦٠/٢
والسيوطى فى بغية الوعاة ، ٣٥٤ ، وابن الساعى فى الجامع
المختصر : ٣٠٦

(١٦) النفح ٦٤١/٢

(١٧) انظر ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب . تحقيق
د. شوقى ضيف الجزء الثانى . ذخائر العرب ١٠ . دار المعارف ١٩٨٠
ص ١٩٢ ، حيث يقول عن نفسه : « على بن موسى بن محمد بن عبد الملك
ابن سعيد ، هو مكمل تصنيف هذا الكتاب ، ولد بغرناطة فى شوال سنة
عشر وستمائة ، ورحل منها فجال مع أبيه فى بر الأندلس وبر العدو
والغرب الأوسط وأفريقية الى الاسكندرية ، وترك والده بالاسكندرية ،
ورحل الى القاهرة ، ثم عاد اليها ، فحضر وفاته ، ثم رجع الى القاهرة ،

يصف ابن سعيد الفسطاط والنيل في ليلة باتها - كما يقول - بطيارة مرتفعة على جانب النيل ، فقد نزل في أحسن منزل من الفسطاط يطوقه النيل كما لو كان عقداً على صدر هذا المكان ، ويصف المراكب وقد اجتمعت فيه في وقت السحر كسرب القطا الضامى الذى يريد ورود الماء بينما يطفو الموج وترتمى طيور القطا وتطرب أحياناً ، وأحياناً تلعب بالنرد أو هو الموج نفسه الذى يفعل ذلك ، وماء النيل حلو حلاوة ريق المحبوب ، وعليه تمتد حلة من حلى خد المحبوب ، وهذا المحبوب يشبه النهر قبل مده وفيضانه ، وعندما جاء المد زاده جمالا فصار كالورد . وهذه الصورة الأخيرة هى الصورة التى يشبه بها النيل أبان الفيضان حين يتغير لون مائه الى الحمرة ، ويفسر ابن سعيد هذا المعنى بقوله : « وقلت هذا لأننى لم أذق فى المياه أحلى من مائه ، وأنه يكون قبل المد الذى يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض ، فإذا كان عباب النيل صار أحمر » (١٨) ، تقول أبياته عن النيل والفسطاط :

« نزلنا من الفسطاط أحسن منزل	بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة	كسرب قطا أضحى يرف على ورد
وأصبح يطفو الموج فيه ويرتمى	ويطرب أحياناً ويلعب بالنرد
حلا مأؤه كالريق ممن أحبه	فمدت عليه حلة من حلى الخد
وقد كان مثل النهر من قبل مده	فأصبح لما زاده المد كالورد » (١٩)

ثم رحل الى حلب فى صحبة الصاحب الكبير الحسن كمال الدين بن أبى جرادة ، ثم عزم على الحج فى هذه السنة ، وهى سنة سبع وأربعين ومستمائة . يسر الله ذلك بمنه .

المغرب ١٧٢/٢ ، ١٧٣

(١٨) النفح ٣٤٢/٢

(١٩) النفح ٣٤٢/٢

ولا يكتفى ابن سعيد بشعره هو في الفسطاط وإنما يروى عن غيره شعرا فيها مثل هذا الذي يرويه عن أيدمر في مدح الفسطاط ، حيث يصورها كوالدة تحنو على أبنائها وتجنبهم دار الجفاء ، فالنيل يرد إليها كدرا معكرا ، ولكن - كما يقول الشاعر - يصفو عندما يمتزج بأهلها ، ويجد الشاعر في هذا مدخلا إلى مدح أهل الفسطاط فهم يتسمون باللطف والرقّة إلى درجة أن المزن لا تألفهم خجلا منهم لأنها تراهم الطف منها ، ويؤكد ابن سعيد هذا المعنى ، بل ويرى أهل الفسطاط الطف من أهل القاهرة ، ولكنه يعلل لذلك بأن لطافة أهل الفسطاط ولينهم تخبىء تحتها الملق والرياء وسوءات أخرى كعدم رعاية صاحب ، وفي هذا المعنى وغيره يقول ابن سعيد : وأنشدني علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة في مدح الفسطاط :

حبذا الفسطاط من والدة جنبت أولادها دار الجفا
يرد النيل إليها كدرا فإذا مازج أهلها صفا
لطفوا فالمزن لا تألفهم خجلا لما رآتهم الطفا

ولم أر في أهل البلاد الطف من أهل الفسطاط حتى أنهم الطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ، والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدر الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره (٢٠) .

وينقل المقرئ عن ابن سعيد ما حكاه عن كتاب الكمائم للبيهقي في فسطاط مصر وبنى طولون ومسجد ابن طولون ، وعن كتب أخرى ككتاب نزهة المشتاق للأدرسي ، وفيها ينشد ابن سعيد للشريف العقيلي شعرا يحن فيه إلى الفسطاط ودعوا لها ألا يحل بها المطر فهي ليست في حاجة

الى المطر - فى رايه - لأن النهر فى كل مكان منها ، ثم يصفها كالعروس
ليلة العرس والمقطم تاجها وقد اتخذت من النيل عقدا لها انتظم على
صدرها مثل الدر :

« أحن الى الفسطاط شوقا واننى لا ادعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنايبها وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر » (٢١)

واذا كان الشاعر لا يدعو للفسطاط بأن يحل بها القطر فانه يفعل
عكس ذلك مع أرض الطبالة بالقاهرة ، ويصوغ نفس المعنى بعد ذلك ،
وان كانت الأبيات الثلاثة السابقة هى للشريف العقيلي ، فان ابن سعيد
يصور أرض الطبالة أيضا كالعروس التى تتجلى يوم عرسها ، والماء حولها
كالعقود ، ويجانس بين قطر وقرط حين يرى فى كل قطر منها قرطا ،
كما انه يجانس جناسا تاما فى كلمة « قرط » التى وردت فى البيت الأول
والثانى بمعنيين مختلفين ، فالأرض التى يتحدث عنها أرض خصبة
يكسوها ويزينها نبات الكتان والقرط وهو ما تعلقه الدواب ، أما القرط
الثانية فهى المعروفة وهى الحلى التى تعلق فى آذان النساء :

« سقى الله أرضا كلما زرت روضها كساها وحلاها بزينته القـرط
تجلت عروسا ، والمياه عقودها وفى كل قطر من جوانبها قرط » (٢٢)

٤ الخليج :

يدخل ابن سعيد الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ولعله ما يسمى
الآن « فم الخليج » ويتحدث عن العجائب التى رآها فيه من شراب

(٢١) النفح ٣٣٨/٢

(٢٢) النفح ٣٤٦/٢

وعريضة وسكر وقد يؤدي السكر الى القتل مما جعل المسؤولين يمنعون
الشرب فيه أحيانا ، ويصفه ويصف ما به من خلاعة مما جعل المحتشمين
والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ليلا ، ويذكر أيضا أن « أهل
الستر » يتفرجون فيه ليلا ، ولعله يقصد الميسورين الأغنياء ، اذا كانت
« الستر » بفتح السين ، أو النساء المحجوبات اذا كانت الكلمة بكسرها .
يقول ابن سعيد : « وقد دخلت في الخليج الذى بين القاهرة ومصر وتعظم
عمارته فيما يلى القاهرة ، فرايت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع
فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشراب ، وذلك في بعض الأحيان ،
وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب
والمخالفة ، حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ،
وللسرج في جانبه بالليل منظر ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل السستر
في الليل » (٢٣) .

ولكن الشعر الذى يورده ابن سعيد بعد ذلك يحدد بدقة معنى الستر
في قوله !هل « الستر » حيث نتبين انه ستار الظلام الذى يستر أو يغطى
أصحاب اللذة والعريضة في هذا المكان ، ففي الآيات يرد قوله : « الا اذا
أسدل الظلام » وقوله : « والليل ستر على التصابى » فمعنى الستر
بالكسر والستر بالفتح واردان . ويبدو أن الخليج في ذلك الحين كان
بديلا « لكازينوهات » شارع الهرم في وقتنا الحاضر . وها هو ابن سعيد
الأندلسى يدعو الى عدم الركوب فى الخليج الا تحت ستار الظلام ، لأن كل
من يرد عليه قوم سيئو السمعة ، فيجب على من يريد أن يستمتع باللذة
فيه أن يختلسها بعد أن ينام الخلق تحت ستر الليل الذى يغطى الصبايات ،
ويصف الخليج وقد بسطت عليه السرج ، أى المصابيح كأنها الدنانير التى
لا يصل اليها أحد ، بينما امتد الخليج وامتدت المباني حوله لتقوم بدور
خدمة الزائرين ، ثم يتحسر الشاعر على ما جناه هنالك من دوح اثر

الأثام والذنوب . وقد عقب المقرئ على هذه الأبيات بأن فيها تحاملا كثيرا من ابن سعيد على هذا المكان وناسه الا أن المقرئ يقول : « ومن نظر بعين الانصاف علم أن التحامل في نسبة التحامل اليه » (٢٤) . يقول ابن سعيد :

« لا تركبن في خليج مصر	الا اذا أسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه	من عالم كلهم طغـام
صفان للحرب قد اُطلا	سلاح ما بينهم كلام
يا سيدى لا تسر اليه	الا اذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى	عليه من فضله لثام
والسرج قد مددت عليه	منها دنائير لا تـرام
وهو قد امتد والمبـانى	عليه في خدمة قيام
لله كم دوحـة جنينا	هناك اثمارها الأثام » (٢٥)

ومع ذلك ، فليس السكر والعريضة وحدهما هما اللذان قد استرعيا نظر ابن سعيد وانما الطبيعة أيضا حول جانبى النهر والخليج ، حيث الكتان ينظر الى النهر باجفان لها احداق ، فقد رات النيل سيفا اثرت فيه ريح الصبا ، فقابلت ما به من وجد باحداق يبدو فيها الأرق من شدة الهوى ، ومن ثم يدعو الشاعر صاحبه أن يزورها بعد أن أصبحت في يد الأرواح ، ويصور هذه الأحداق وقد تحولت الى حلق فوق حلق ، ولعله يقصد انعكاسها على صفحة ماء الخليج ، والزيارة المزمعة هذه قد تكون عندما يصطبح وجه الأرض ، أى يشرب الصبوح من خمر النيل ، أو عندما يصفر ، أى فى الغروب حيث الغبوق . وغنى عن الذكر أن نشير الى ما فى كل هذه الصور من تشخيص بث الحياة الانسانية فى النهر

(٢٤) النفج ٣٤٩/٢

(٢٥) النفج ٣٤٩/٢

والكتان حيث له أجفان وأحداق ، والأرض حيث لها وجه ، وجعل كل ذلك يتحرك ويشرب وينتشي من خمرة النيل ، وخلق علاقة عاطفية بين النهر وأحداق الكتان الأرق لى يكمل عناصر هذه اللوحة الحية التى رسمت بدقة ثم بث الشاعر فيها الحركة والعاطفة :

من جانبيه باجفان لها حدق	» انظر الى النهر والكتان يرمقه
فقابلته بأحداق بهنا ارق	رأته سيفا عليه للصبا شطب
حتى غدت حلقا من فوقها حلق	وأصبحت فى يد الأرواح تنسجها
او عند صفرتها ان كنت تغتبق» (٢٦)	فقم فزرها ووجه الأرض مصطب

* * *

٥ - جزيرة الروضة :

لقد حظيت جزيرة الروضة من ابن سعيد أيضا بالاهتمام ، وكانت تعرف بالجزيرة الصالحة وهو اسم يصرح به المقرئ فى تقديمه لأبيات ابن سعيد وكذلك ابن سعيد نفسه فى أبياته التى يدعو فى أولها الناظر الى تأمل حسن الصالحة حين تبدو مناظرها مثل النجوم المتلألئة فى السماء ، ويدعو كذلك الى تأمل جمال القلعة الغراء التى تبدو كأنها البدر الطالع وكأنما تفجرت به المياه فبدأ هلالا وسط الماء . ويتوقف الشاعر مليا عند وفاء النيل ووصول مائه الى الجزيرة أو الى القلعة . . . كأنما هو زائر محب يروم الوصل ، ومن ثم نرى صورا تجسدية حية فيها عناق وشوق فالنيل من فرط شوقه لجمال الجزيرة يعانقها فيمد يمينه نحوها وشماله ، انه يجرى اليها وقد أتى بالسعد ليخط به حولها علامات تدل على زيارته هذه وعلى عشقه لها :

(٢٦) النفح ٢/٣٤٧

« تأمل لحسن الصالحية اذ بدت مناظرها مثل النجوم تسللا
وللقلعة الغراء كالبدر طالعا تفجر صدر الماء عنه هلالا
ووافى اليها النيل من بعد غاية كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق بحسنها فمد يمينا نحوها شمالا
جرى قادما بالسعد فاخطت حولها من السعد اعلاما بذلك دالا » (٢٧)

ولابن سعيد ايضا ابيات أخرى يقف فيها عند سور الجزيرة فى ظلام الليل ليصف ألوانا شتى وصورا عجيبة ، فالبدر يقبل ثغر سور الجزيرة ، والأنوار تتضاحك فى جنباته ، ومن ثم تظهر العجائب على سطح النيل ، فأحيانا يبدو مفضضا فى جانب ، وأحيانا أخرى مذهبا فى جانب آخر . ولشد ما يعجب ابن سعيد بهذا المنظر فيخرج عن وقاره ويطرب من هذا الشعر :

« انظر الى سور الجزيرة فى الدجى والبدر يلثم منه ثغرا أشنبا
تتضاحك الأنوار فى جنباته فتريك فوق النيل أمرا معجبا
بيننا تراه مفضضا فى جانب أبصرت منه فى سواه مذهبا
لله مرأى ما رآه ناظــــرى الا خلعت له المقام تطربا » (٢٨)

وإذا كان ابن سعيد مولعا بجمال جزيرة الروضة بهذه الطريقة فيما كتب من شعر فانه كان مولعا بها فيما كتب من نثر ، بل أنه ليرجع جمال الفسطاط والعناية بها الى قربها من الجزيرة الصالحة ومجاورتها لها ، وهو يفضل الفسطاط على القاهرة ويلخص المقرئ حديثه عن الروضة وموقعها وتاريخها فيقول : « وقال ابن سعيد المذكور فى « المغرب من حلى المغرب » ما ملخصه : الروضة أمام الفسطاط فيما بينها وبين

مناظر الجزيرة ، وبها مقياس النيل ، وكانت متنزها لأهل مصر ، فاختارها الملك الصالح ابن الملك الكامل سريرا لسلطنته ، وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء على السمك لم تر عينى أحسن منه ، وفى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الخليفة الأمر لزوجته البدوية التى هام فى حبها ، والمختار بستان الاخشيد وقصره وله ذكر فى شعر تميم بن المعز وغيره « (٢٩) . ثم يذكر قول شاعر مصرى - هو أبو الفتح ابن قادوس الدمياطى - فى هذه الجزيرة :

أرى سرج الجزيرة من بعيد كاحداق تغازل فى المغازل
كان مجرة الجوزاء خطت وأثبتت المنازل فى المنازل « (٢٩)

وهكذا كان ابن سعيد من شدة إعجابه بالفسطاط والروضة يبيت بعض الليالى فى الفسطاط يتأمل حسن البدر على صفحة النيل مع سور الجزيرة ، وهو ما أشار اليه فى الأبيات السابقة : « انظر الى سور الجزيرة فى الدجى ٠٠٠ الخ » ولم يكن ابن سعيد وحده هو الذى فتن بسحر الجزيرة فابن مماتى يقول فيها :

جزيرة مصر لا عـددتك مسرة ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن قامة يبيت ويحى هجرها ووصلها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجا ومختلفات الموج فيك حبالها
ومن أعجب الأشياء أنك جنة تمد على أهل الضلال ظلالها (٣٠)

(٢٩) النفح ٣٤٣/٢

(٣٠) هو أبو المكارم الخطير الاسعد بن الخطير المعروف بابن مماتى (- ٦٠٦) كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، حظيا عند القاضي الفاضل (راجع ترجمته فى الجزيرة ١٠٠/١ قسم مصر ، ومعجم الأدباء ١٠٠/٦ ووفيات الأعيان ١٨٧/١) النص والتعريف بالشاعر عن د . احسان عباس والمقرئ ٣٦/١

— ٣٩ —

(٣ - مصر فى نفح الطيب)

ويعقب المقرئ على البيت الأخير بقوله « ولعله أراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستولين اذ ذاك على الدولة » (٣١) . ومن الواضح أن الأبيات تتحدث عن اللذات والمسرات المتصلة والتي يدعو الشاعر أن تظل متصلة في الجزيرة ، حيث الشمس ذات الهجر والوصال للذين يحييان ويميتان ، وحيث المنازل التي تحولت الى هودج وأماكن للهو .

والهودج الذى أشرنا اليه هو من متنزهات الخلفاء الفاطميين ويحكى لنا ابن سعيد فيما رواه المقرئ من قصة بناء الخليفة الأمر بأحكام الله له يقول « ان الأمر كان قد بلى بعشق الجوارى العربيات ، وصارت له عيون فى البوادي ، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرفهم ، شاعرة جميلة ، فيقال : انه تزيا بزى بداء الأعراب ، وكان يجول فى الأحياء الى أن أنتهى الى حياها ، ويات هنالك ، وتحيل حتى عاينها هناك ، فما ملك صبره ، ورجع الى مقر ملكه وأرسل الى أهلها يخطبها ، وتزوجها فلما وصلت اليه صعب عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحببت أن تسرح طرفها فى الفضاء ، ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة ، فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج ، وكان غريب الشكل على شط النيل . » (٣٢) .

٦ - القاهرة :

إذا كنا قد استفضنا فى الحديث عن الفسطاط وما يتصل بها من جزيرة الروضة وما يقع بينها وبين القاهرة كالخليج ، وأخرنا الحديث عن القاهرة فذلك لأنها مدينة حديثة عن الفسطاط ، بناها الفاطميون وتفتنوا فى بنائها واتخذوها مقرا لخلافتهم . وقد جاء تأخيرنا لها بسبب -

(٣١) النفخ ٣٦/١

(٣٢) النفخ ٢٩٠/٢ ، ٢٩١

تأخر منزلتها في نفس ابن سعيد ولقلة الشعر الذى قيل في مدحها ، ومع ذلك فهى مدينة عظيمة مع أن ابن سعيد يرى أن اسمها أعظم منها فقد سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفتها . وعلى الرغم من ذلك فهو يعترف بهمة السلاطين الظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، ويتحدث عن ايوان بنى فيها على نمط ايوان كسرى بالمدائن ، وكان يجلس فيه الخلفاء ويصف المباني العظيمة التى بنيت على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة والطاقت الكلسية فى حيطان قصورهم التى تبيض كل عام . وعلى الرغم من أن هناك أماكن متسعة مثل المكان المعروف بين القصرين الا أن القاهرة - فى نظر ابن سعيد - فيما عدا ذلك ضيقة ، وليس هناك أسوأ منها ، أو لأن ابن سعيد لم يراسو أمنها فى بلاد المغرب ، يقول بعد أن يذكر منطقة بين القصرين : « ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه الى أمد ضيق ، وتمر فى ممر كدر حرج بين الذكاكين ، اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرحالة كان مما تضيق به الصدور ، وتسخن منه العيون ... وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء ، والضوء بينها ، ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك ، ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى ، وندركنى وحشة عظيمة ، حتى أخرج الى بين القصرين » (٣٣) .

وقد سجل ابن سعيد رأيه هذا شعرا فهو لا يستريح بالقاهرة ، ولما الح عليه أصحابه ليعود اليها رد قائلا :

« يقولون سافر الى القاهرة ومالى بها راحة ظاهرة
زحام وضيق وكرب ومسا تثير بها أرجل » « سائرة » (٣٤)

(٣٣) النفج ٣٤٥/٢ ، ٣٤٦

(٣٤) النفج ٣٤٦/٢

ولكن اذا كانت هذه الأشياء التى لا تعجب أحدا قد أثارت سخط ابن سعيد وجعلته يضيق ذرعا بالقاهرة فانه قد مدح بعض الأماكن التى رأى فيها متنفسا من هذا الكدر كارض الطبالة التى سبق ان ذكرناها والخليج الذى خصصناه أيضا بالتناول من قبل . وإلى جانب هذين المكانين أعجب ابن سعيد ببركة الفيل التى احاطت بها المناظر البديعة ، وراح مرة بالليل وأخرى بالنهار ، ففى الليل تراها مستديرة كالقمر البدر « والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرح أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب ، وفى ذلك قيل :

« انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر » (٣٥)

وحينما يراها بالنهار وقد سطعت فيها الشمس فى الغدو تبقى عينه
مجنونة بحبها وحسنها ، تهيم بها وجدا :

انظر الى بركة الفيل التى فجرت لها الغزالة فجرا من مطالعها
وخل طرفك مجنونا ببهجتها يهيم وجدا وحبا فى بدائعها «

ومما أعجبه أيضا فيها الأزهار لأنها غير منقطعة الاتصال ، ومن ثم فهو يرى أن مصر تفضل غيرها من البلدان فى هذا الأمر ، وقد ذكر ابن سعيد لنفسه شعرا فى النرجس والورد قال فيه :

« من فضل النرجس وهو الذى يرضى بحكم الورد اذ يـرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا وقام فى خدمته النرجس » (٣٦)

(٣٥) النفح ٣٤٧/٢

(٣٦) النفح ٣٤٨/٢

والى جانب بركة الفيل هناك بركة أخرى يذكرها أبو الصلت أمية
ابن عبد العزيز الأندلسي هي بركة الحبش التي قصدها مع رفقة له ساعة
الغيش لكى يصطبخوا فيها « وحلوا منها روضا بسم زهره ، ونسم
عطره ، فاداروا كثوسا ، تطلع من المدام شموسا ، وعاینوها نجومًا ،
تكون لشیاطین الهموم رجوما ، فطرب حتى أظهر الطرب نشاطه ،
وابرز ابتهاجه وانبساطه ، فقال :

والجو بين الضياء والغيش	« لله يومى ببركة الحبش
كصارم في يمين مرتعش	والنيل تحت الرياح مضطرب
دبح بالنور عطفها ووشى	ونحن في روضة مفوفة
فنحن من نورها على فرش	قد نسجتها يد الغمام لنا
من سورة الهم غير منتعش	فعاطنى الراح ان تاركها
فهن اروى لشدة العطش	واسقنى بالكبار مترعة
دعاه داعى الصبا فلم يطش « (٣٧)	فأثقل الناس كلهم رجل

وهكذا يصور أبو الصلت يوما قضاه في هذا المكان بين متعة
واستمتاع ، وهنا نجده حريصا على تصوير المكان والزمان بدقة ،
فالمكان بركة الحبش ، والزمان بين الضياء والغيش ، ولعله انسب وقت
للصباح ، ولابد من عناصر مصرية ثلاثة : النيل والروضة والراح ، فالنيل
تتموج صفحة مائه على اثر الرياح ، ولكن هذه الحركة لا تبقى عند
حد المباشرة في الصورة وانما تكتمل بالتشبيه ، فماء النيل اللامع
المضطرب يبدو كسيف لامع صارم ، في يد انسان لا يجيد النزال ولذا
فهو يرتعش ، أما الروضة فكثيرة الظلال والأنوار التي وشتها وحلت
جوانبها وحواشيها ، وهذه الأنوار المضيئة ليست أنوارا على الحقيقة ،
وانما هي النور الأبيض ، وهذه الروضة نسجتها يد الغمام لكى يستمتع

بها الشاعر ورفاقه ، وكأنهم يفتشون نورها . أما الراح - وهى قاسم
مشارك بين الشعر الأندلسى والشعر المصرى - فهى التى تذهب الهم ،
ومن يتركها لا ينتعش أبدا من سORTE ولذا يلوذ بها الشاعر ويشرب
بالكنوس المليئة كى يروى شديد عطشه ، ويختتم الشاعر أبياته بما
يشبه الحكمة التى تحت على تلبية داعى الصبا والطيش والاستمتاع
بملذات الحياة .

وأبو الصلت أمية من كبراء أدباء الأندلس العلماء الحكماء - كما
يصفه المقرئ (٣٨) - وله فى مصر أيضا وصف الرصد الذى بظاهر مصر :

« يا نزهة الرصد اللائى قد اشتملت من كل شىء حلا فى جانب الوادى
فذا غدير ، وذا روض ، وذا جبل والضب والنون والملاح والحادى » (٣٩)

والأبى الصلت - الى جانب هذا - قصائد فى وصف المنازل والمباني
والقصور البديعة ، ومن ذلك وصفه لقصر يسمى « منزل العز » يقال :
ان الذى بناه هو حسن بن على (بن يحيى) بن تميم بن المعز
العبيدى (٤٠) ، وفى بداية القصيدة يتخذ الشاعر من اسم القصر مجالا
للتلاعب بمعناه ، فالقصر يسمى منزل العز ، واسمه - اذن - كمعناه ،
ويتخذ من هذا مناسبة للدعاء لمن سماه بهذا الاسم الا يجاوزه العز

(٣٨) النفح ٣/٣٢٣ ، وانظر هامش احسان عباس المشار اليه
سابقا فى النفح ١/٤٩٦

(٣٩) النفح ١/٤٩٨

(٤٠) يشك احسان عباس فى هذا الاسم ، ويظن ان الوصف لقصر
بناه أحد العبيديين بمصر . أما الشاعر تميم بن المعز فليس له أبناء لانه
كان عقيما . انظر الهامش : النفح : ١/٤٩٦ ، وكذلك الحلة السراء
٢٩١/١

أبدا ، ثم يبين كيف أن المنازل تغار منه ومن سموحه ، بل انها لتود لو كانت مكانه ، ثم يدعو الشاعر من يوجه اليه الخطاب ان يتأمله ليرى حسنه الذى انفرد به دون غيره من القصور ، ويبدأ بعد ذلك فى وصف الذهب السائل فى سقفه ، فالسقف مطعم بالذهب ، أما أرضه فيبدو أنها بيضاء لامعة كالمرآة ، ولذا يصورها وكأن بها مياه متجمدة ، ثم ينتقل الى الصور المرسومة أو المحفورة والمنقوشة أو البارزة ليتناولها على طريقة الباحث فى وصف ايوان كسرى ، فالقصر قد تحول الى ساحة قتال وطراد ، والخيول دائرة فى المعركة ، التى نرى فيها الفارس المدجج بالسلاح ، ومع أنه فارس محارب الا أن قناته أو رمحه ليس عليهما دم من أثر الطعان ، وكأن الشاعر قد تنبه الى أنها مجرد تماثيل . أما ضارب النبل ومطلقها فهو يشد على قوسه ويطلق نبله فتسقط الأسهم بعيدا عن قرنه ، بينما تبرز هذه التماثيل أو اللوحات المنقوشة صفوفا من الوحوش والطيور البديعة ، ويلمح الشاعر سكونها جميعا مع أنك تخالها متحركة ، ثم يرى بين جمال هذا الفن وجمال المحبوب وجوه شبه ، ويبدو أنه يعقد الشبه المباشر بين حديقة القصر وما بها من أزهار وبين صفات المحبوب وملامحه ، فوجه الحبيب فى جماله يشبه الورود والأزهار ، فالوجنتان كالورد ، والعينان كالنرجس الفتان ، والعارضان الآس والريحان ، وطيب المحبوب ولونه الكافور والمسك ملازمان له فى الليل والنهار . ويرى الشاعر فى حسن هذا القصر ومناظره ما يذكره بفترة الصبا . وليست هذه الصور بتفاصيلها جديدة فى تراثنا العربى ، ولو أن الشاعر قد يكون حساسا لتوزيع الأزهار والألوان والأضواء بين الورد والنرجس والآس أو الريحان ، ثم له أيضا ذلك الجمع بين الرائحة واللون وجعلهما من أصل واحد ، فالكافور والمسك فى طيب المحبوب ولونه :

» منزل العز كاسمه معناه لا عدا العز من به سماه
منزل ودت المنازل فى أعلى ذراه لو صيرت آياه

فأجل فيه لحظ عينيك تبصر أى حسن دون القصور حواه
 سال فى سقفه النضار ولكن جمدت فى قراره الأمواه
 وبأرجائه مجال طراد ليس تنفك من وغى خيلاه
 تبصر الفارس المدجج فيه ليس تدمى من الطعان قناه
 وترى النابل الموصل للنز ع بعيدا من قرنه مرماه
 وصفوفا من الوحوش وطير الد- جو كل مستحسن مرآه
 سكناات تخالها حركات واختلاف كانه اشباه
 كمحيا الحبيب حرفا بحرف ما تعدى صفاته اذ حكاه
 ورده وجنتاه ، نرجسه الفت ان عيناه ، آسه عارضاه
 وكان الكافور والمسك فى الطير ب وفى اللون صبحه ومساه
 منظر يبعث السرور ومسراى يذكر المرء طيب عصر صباه «(٤١)

ويبدو أن ابا الصلت أمية قد شغف بوصف الأبنية ، فها هو يصف
 بناء بناه على بن تميم بن المعز العبيدى ، فيتحدث عن ارتفاع قبابه
 وشموخها ، فكان هذا البناء أسس ووطد فوق السماك يكاد يصل الى
 نجوم المجرة . وفى هذا القصر تكثر الجوارى الحسان كانهن الجوارى
 الكنس اللاتى ذكرهن القرآن الكريم ، يبدو أن به نهرا أو بحيرة نوشك
 أن نلمحها اذا فسرنا كلمة الجوارى الأولى بالسفن ، وهو قصر تكثر
 فيه الأضواء المتقابلة حتى ليبدو ليله نهارا مشمسا ، وتحت سمائه نرى
 عطف حناياه ، ويشبه الشاعر هذه الأقواس فى القصر بالآهله والحواجب
 والقسى التى تستخدم فى النبل ، أما الأعمدة الرخامية فعالية شامخة ،
 يحيط بها جمال أجمل من أزهار الربيع وأنفس ، لان نسيمه من نسيم
 وعطر القدود الهيفاء ، وأرضه الملساء من نعومة الخدود الملساء .
 وهذا القصر لشموخه وعظمه يبدو وكالفلك ولذا يحار فيه المنجمون ويقصر

(٤١) النفح ٤٩٦/١ ، ٤٩٧

عنه المهندسون ، ومن ثم فان جماله يسر الناظر اليه ، والراحة فيه وطيب العيش موفوران ، ولهذا يرى الشاعر انه خير معرس . ثم يتوجه بالخطاب الى صاحب القصر الذى يطلع بقصره قمرا منيرا حينما تطلع شمس الخدور - يقصد جوارى القصر وحريمه - شمس الأكؤس ، ويقصد بها الخمر الصهباء ، ويرى الشاعر ممدوحه أعلى منزلة من كل الناس ، ومجلسه أرفع وأسمى من كل ما على الأرض من أبنية وعمائر :

» لله مجلسك المنيف قبابه	بموطد فوق السماك مؤسس
موف على حبك المجرة تلتقى	فيه الجوارى بالجوارى الكنس
تتقابل الأنوار من جنباته	فالليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دوين سمائه	عطف الأهله والحواجب والقسى
واستشرفت عمد الرخام وظوهرت	بأجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف	وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم	واقر بالتقصير كل مهندس
فبدا للحظ العين أحسن منظر	وغدا لطيب العيش خير معرس
فاطلع به قمرا اذا ما أطلعت	شمس الخدور عليك شمس الأكؤس
فالناس أجمع دون قدرك رتبة	والأرض أجمع دون هذا المجلس» (٤١)

٧ - الأهرام :

اذا كان أبو الصلت أمية قد اهتم هذا الاهتمام بالمبانى والقصور فان الأولى به أن يتحدث عن أضخم بناء فى مصر والعالم القديم ، واذا كان ما دفعه الى وصف تلك القصور هو المدح فان ما يدفعه الى وصف

(٤١) النفح ١/٤٩٧ .

الآهرام هو جلال البناء وجمال هندسته وفخامته ، وربما كان ذلك راجعا أيضا الى المناظرة التي قامت بينه وبين الشاعر المصرى ظافر الحداد ، كما يروى المقرئ عن « بدائع البدائى » ان جماعة من الشعراء فى أيام الافضل خرجوا متنزهين الى الآهرام ليروا عجائب مبانيها ، ويتأملوا ما سطره الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها ، فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى :

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا على ما رأيت عيناك من هرمى مصر
أنافا بأعنان السماء فأشرفا على الجو أشراف السماء أو النسر
وقد وافيا نشزا من الأرض عاليا كأنهما نهدان قاما على صدر (٤٢)

وصنع أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب
كعماريتين على رحيـل بمحبوبين بينهما رقيب
وفيض البحر عندهما دمـوع وصوت الريح بينهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صـ تخلف فهو محزون كئيب « (٤٣)

(٤٢) أورد المقرئ هذه الأبيات مرة أخرى فى النفح ٤٩٨/١ مع اختلاف فى بعض الكلمات والعبارات ، فمثلا كلمة « أعجب » تحل محلها « أحسن » وعبارة « على ما رأت عيناك » تستبدل بـ « على طول ما عاينت » ، « فأشرفا » تصير و « وأشرفا » بالواو ، و « نهدان » تحل محلها « ثديان » .

(٤٣) نص المقطوعتين معا فى النفح ٢٣٢/٣

وكذلك ترد مقطوعة ظافر الحداد فى :

ديوان ظافر الحداد ، ابن الاسكندرية ، تحقيق د. حسين نصار .

=

والأبيات الأولى تدل على موقف الوافد على مصر حينما يرى الهرمين فيعجب من منظرهما لأنه لم ير أعجب من ذلك فيما رأى في حياته ، فهما قد وصلا الى اسباب السماء في ارتفاعهما ، واشبهها السماء أو النسر المطائر في الهواء وهو يحلق عاليا ، وهما الى جانب ذلك قد صادفا مكانا عاليا مرتفعا اقيما عليه ، ويشبههما في هذا الارتفاع تشبيها حسيا بثديين أو نهدين على صدر امرأة ، وكأنه في هذا يستدعى حسن هذا المكان وسحره .

أما ظافر الحداد وهو شاعر مصرى فيعجب من عظمة هذه الحضارة التى تتجلى فى صورة الهرمين وأبى الهول العجيب بينهما ، ويشبههما بهودجين على رحل جمل مسافر بمحبوبين ، هما الهرمان دون أدنى شك ، ولكنه يجعل من أبى الهول بينهما ذلك الرقيب العاذل بين المحبوبين . أما ماء النيل الذى يجرى اسفل بعيدا عن هذا المكان فهو دموع يذرفها للأحباء ، ونوت الريح التى تدوى بينهما هى نحيبهما ، وهكذا نرى شعر ظافر مليئا بالتصوير الفنى والمشاعر والأحاسيس مستوحيا التراث العربى القديم وملبسا الجمادات مشاعر الانسان ، وبهذا استطاع أن يبيث فى الصورة قدرا كبيرا من الحيوية على عكس أبى الصلت أمة الذى لا يعدو شعره نظما فاترا باردا فيه المباشرة أو التشبيه الخارجى

مكتبة مصر ١٩٦٩ • المقطوعة ٤ ص ٤ - وفيه يرد البيت الثالث على هذا النحو :

وماء النيل تحتها دمـوع وصوت الريح بينهما نحيب
ولعله أوفق فى التعبير حيث يذكر ماء النيل تحتها وليس فيض
البحر عندهما نظرا لبعد النيل وانخفاضه عن هضبة الأهرام • وهو
ما يتفق مع قول مناظره فى البيت الأخير « وقد وافيا نشزا من الأرض
عاليا ... » .

المادى الذى لا يصل الى أعماق النفس . وقد اُضيف ظافر الحداد
كذلك صورة سجن يوسف كصب خلفه أحبابه وتركوه فبدا محزوناً كثيلاً ،
ولا ندري هل أراد بذلك أبا الهول أم الهرمين وتكون الصورة بهذا
استكمالاً للدموع التى يذرفها الهرمان والنحيب الذى يصدر عنهما
أو عن الريح .

إذا كنا قد تلمسنا فى هذا القسم صورة مصر بكل جوانبها كما صورها
الشعراء ، وكما تناولوا هذه الجزئيات منفصلاً بعضها عن بعض فى أغلب
الأحيان ، فها هو الصفدى (٤٤) يعطينا صورة كلية فى أبيات له يبدؤها
بالدعاء لمصر بالسقيا لما فيها من مجالس أنس ولحسن عشرة أهلها ،
ثم يذكر كافة صنوف الجمال فيها على النحو التالى :

« سقيا لمصر وما حوت	من أنسها وأناسها
ومحاسن فى مقسها	تبدو وفى مقياسها
ومسرة كاساتها	تجلى على أكياسها
وسطور قرط خطها البيا	رى على قرطاسها
ودمى كنائسها ، ولا	تنسى طباء كناسها
ولطافة بجلالة	تبدو على جلاسها
ونواسم كل المنى	للنفس فى أنفاسها
ومراكب لعبت بها الأ	مواج فى وسواسها « (٤٥)

* * *

(٤٤) (خليل بن أبيك الصفدى (- ٧٤) صاحب الوافى بالوفيات
وأعيان العصر ونكت الهميان والتذكرة الصفدية والغيث المسجم وغير ذلك
من المؤلفات الكثيرة (انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ٨٧/٢ ، وطبقات
الشافعية ٦ : ٩٤) وشعره منثور فى مؤلفاته (هامش احسان عباس .
النفح ٣٨/١

. النفح ٣٨/١ (٤٥)

ثانيا : تصوير العواطف

إذا تأملنا هذه المجموعة التى بين أيدينا من الشعراء نستطيع أن نلمح تضاربا فى العواطف ازاء مصر بين المدح والذم والاحساس بالغربة فيها والحنين الى الأندلس أو الى مسقط رأس الشاعر ، وفى بعض الأحيان ، الحنين الى مصر نفسها اثناء البعد عنها ، وفى التفضيل ، قد تفضل مصر على غيرها وقد يفضل غيرها عليها .

١ - الغربة والحنين الى الأندلس :

لا شك أن أول شعور يخالج الانسان الذى يترك بلده لدى وصوله الى بلد آخر هو شعور بالغربة والوحشة فى هذا المكان الجديد ، ولا بد أن يمتزج هذا الشعور بحنين جارف الى الوطن وملاعب صباه فيه ، وها هو ابن سعيد يصارحنا بهذا ، ويدعم كلامه بقصيدة طويلة ، يقول المقرئ : « قال رحمه الله تعالى : ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتنى فيهما وحشة ، وأثار لى تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التى قطعت بها العيش غضا خصبيا ، وصحبت بها الزمان غلاما ولبست الشباب قشيبا ، فقلت :

هذه مصر فاين المغرب مذ نأى عنى دموعى تسكب
فارقته النفس جهلا انما يعرف الشئ اذا ما يذهب الخ» (١)

هكذا يبدأ قصيدته فور وصوله الى مصر بالسؤال عن المغرب ، وهو سؤال يحمل فى طياته الاحساس بالوحشة فى مصر والحنين الى الوطن

(١) النفح ٣٨١/٢

وفيه كذلك معنى الحسرة والاحساس بالبعد عن المغرب والتمنى أن يعود إليه ، وكان المغرب هو الذي بعد عن الشاعر : « مذ نأى عنى » ، ومنذ ذلك الحين وعيناه تسكبان الدمع ، فهو متصل بالبكاء لفراق وطنه ، ثم يعترف بأنه فارق وطنه جهلا بقدره آنذاك ، ولكنه الآن يعرف قيمته وقدره ، وهكذا يعرف الانسان قدر كل شيء اذا ذهب عنه ، وبعد أن يقول ذلك فيما يشبه الحكمة يسأل عن حمص - كما سأل عن المغرب - وحمص هنا هى اشبيلية التى يتحسر الشاعر على أيامه بها ، لأنه لم يصادف لذة ولا شيئا يعجبه بعدها ، ويذكر ملذاته بها حيث يطربه خريز النهر وشدو حمام الايك . يتحسر على تلك الحياة الطيبة الهائلة بها ، ويذكر المرج ولذاته التى ما بعدها لذة والنواعير التى تذكره بألم الفراق الذى لا يفارق مهجته ، وهكذا حتى ينظم فى هذه المدينة معانى الآية القرآنية الكريمة ، « بلدة طيبة ورب غفور » ، ولهذا فهو يتمنى لو أنه ما زال يذنب فيها :

« أين حمص ؟ أين أيامى بها	بعدها لم ألق شيئا يعجب
كم تقضى لى بها من لذة	حيث للنهر خريز مطرب
وحمام الايك تشدو حولنا	والثانى فى ذراها تصخب
أى عيش قد قطعناه بها	ذكره من كل نعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لذة	بعدها ما العيش عندى يعذب
والنواعير التى تذكرها	بالنوى عن مهجتى لاتسلب
.....
بلدة طابت ورب غافر	ليتنى ما زلت فيها أذنب » (٢)

والشاعر فى هذه القصيدة الطويلة التى بدأها بالحنين الى المغرب

والأندلس وخص بالحديث حمصا أو اشبيلية ، وذكر أيام لهوه بها
ومروجها ونواعيرها ، يحلو له الى جانب ذلك أن يعقد مقارنة بين
النيل ونهر اشبيلية ، نهر الوادى الكبير ، وكل جمال رآه
الشاعر فى النيل يصغر فى عينيه امام هذه الذكرى وهذا الحنين الجارف
الى ذلك النهر ذى النغمات التى تطرب والزوارق التى تحملها الأقمار -
يقصد الجوارى الحسان - التى تسقيه ، والكؤوس التى يشربها ، ويصف
الشاعر كل هذا الحسن وكيف ركب هذه الزوارق واستمتع بها :

« اين حسن النيل من نهر بها كل نغمات لديه تطرب
كم به من زورق قد حله قمر ساق وعود يضرب
لذة الناظر والسمع على شمع زهر وكؤوس تشرب
كم ركبناها ولم تجمع بنا ولكم من جامح اذ يركب » (٣)

ثم يذكر الجزيرة الخضراء ويتحسر عليها وعلى ليله فيها مع
حبيبه ، والمدام ، والبحر الذى يشبه الثوب الأزرق ، ويحن الشاعر
الى اشجار الحور والى نهر شنيل ، ويذكر ما كان فيه من حسان
وجور عين وغناء ، ثم يهفو شوقا الى ما لقة وأبراجها وأشجارها
العاشقة ، ويبكى على مرسية دما ، لما تركه فيها من نعيم معشب
وشمس طلعت فى ناظره ، ثم صارت فى فؤاده تغرب ، ويخلص من
هذه الذكرى وهذا الحنين المعنى الى الوجه الآخر للعملة (٤) ، فهذه
حاله هناك فى بلاده فى المغرب والأندلس ، أما حالته هنا فهى شى آخر
على النقيض من ذلك كله ، ففكره متعب :

(٣) النفح ٢٨٢/٢

(٤) انظر الوجه الأول فى حنينه الى الاندلس فى : النفح ٢٨٢/٢ ،

٢٨٣

« هذه حالى ، وأما حالتى فى ذرا مصر ففكر متعب
سمعت اذننى محالا ، ليتها لم تصدق - ويحها - من يكذب
وكذا الشيء اذا غاب انتهوا فيه وصفا كى يميل الغيب
ها أنا فيها فريد مهممل وكلامى ولسانى معرب
وارى الألاحظ تنبو عندما اكتب الطرس افيه عقرب ؟
واذا احسب فى الديوان لم يدر كتابهم ما احسب
وانادى مغربيا ، ليتنى لم اكن للغرب يوما انسب
نسب يشرك فيه خاممل ونبيه ، أين منه المهرب ؟
اثرانى ليس لى جد له شهرة او ليس يدرى لى أب
سوف اثنى راجعا لا غرنى بعدما جريت برق خلب » (٥)

هكذا يعرض ابن سعيد حالته بفكره الذى يتعبه ، فهو يسمع
ما يكره ، ويتمنى لو أن اذنه لم تصدق هذا الكذب والافتراء ، والناس
فى مصر لا يهتمون بما يكتب ولا يعرفون له قدره ، فهو فى مصر يعانى
من الوحدة والاهمال مع أنه يتحدث العربية بلسان فصيح معرب ،
والأكثر من ذلك انهم ينادونه بالمغربى ، وهو أمر جعله يتمنى عدم
الانتساب الى الغرب . ففى هذا النداء تعميم ينطبق على كل مغربى
لا تخصيص لابن سعيد ، وفى التخصيص تكريم ومعرفة لقدر الشخص .
أما التعميم والمناداة بالنسب الى الوطن فيشترك فيه معه الخامل
والنبيه والغبى والذكى . والشاعر ساخط أشد السخط وثائر أشد
الثورة على هذا النداء الذى يريد الهرب منه ، ويرى فى ذلك غضا من
حسبه ونسبه ، من شهرة جده وأبيه ، ويختتم الشاعر أبياته بقرار
العودة الى بلاده ويدعو ألا يغره برق « خلب » أو سراب مضادع
بعد هذه التجربة وهى تجربة الرحلة الى مصر . وإذا كان ابن سعيد

يفخر بحسبه ونسبه ، فالحق أن أباه كان على أعمال الجزيرة ، وإنه ناب عنه فيها. « ومازج الأدباء ، ودون كثيرا من نظمه ، ودخل القاهرة ، فصنع له أدباؤها صنيعا في ظاهرها » (٦) . وعلى الرغم من أن ابن سعيد كان يلتقى بالشعراء في مصر ، ونعرف أنه « لقي بمصر أيدير التركي والبهاء زهيراً وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وغيرهم » (٧) ، إلا أنه كان يشعر بالخمور والنسيان ويشكو الوحشة التي أصابته في مصر ، فها هو يتأمل الوجوه ولا يعرف منها وجها واحدا ، فهو تائه ضال بينهم ، غريب توحشت الحاظه في عالم لا يشبهه فيه أحد ، ويأخذ الشاعر على نفسه عهدا أن يعرف حق وطنه إذا عاد إليه لأنه قد أضاع عمره كله في الغربة :

« أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى ما بينها وجها لمن أدريه
عودى على بدئى ضللا بينهم حتى كأنى من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت الحاظنه في عالم ليسوا له بشبيهه
ان عاد لى وطنى اعترفت بحقه ان التغرب ضاع عمرى فيه » (٨)

وكما فضل الشاعر - في بائيته الطويلة التي ذكرنا طرفا منها - نهر حمص على النيل ، فإنه يعيد الكرة في صورة أخرى يشترك فيها إلى حمص ونهرها حيث المناظر الخلابة كأنها النجوم التي تبدو في السماء ، ويعقد مقارنة طريفة بين نيل مصر ونهر اشبيلية ، نهر الوادى الكبير ، فهو اذا سبح فيه لم يخش شيئا الآن التيار فيه هادىء ، وليست فيه تماسيح كنهر النيل :

(٦) النفح ٢٧١/٢

(٧) النفح ٢٧٢/٢

(٨) النفح ٢٦٢/٢

« يانيل مصر أين حمص ونهرها حيث المناظر أنجم تلتاح
في كل شط للنواظر مرشح تدعو اليه منازل وبطاح
واذا سبحت فلست أسبح خائفا ما فيه تيار ولا تمساح » (٩)

وليس ابن سعيد وحده هو مبتكر هذا المعنى وإنما يشركه آخرون
فقد قيل لأحد من رأى مصر والشام : أيهما رأيت أحسن ؟ أهذان
أم اشبيلية . فقال بعد تفضيل اشبيلية : شرفها غابة بلا أسد ، ونهرها
نيل بلا تمساح (١٠) .

والتقليل من شأن النيل العظيم أمام نهر ش النيل - ذلك النهر الصغير
المسكين الذى يمر بغرناطة - يرد أيضا فى كلام لسان الدين بن الخطيب
حيث يرى أن ش النيل يساوى ألف نيل ، يقول المقرئ : « وفى بعض كلام
لسان الدين ما صورته : وما لمصر تفخر بنيلها ، وألف منه فى ش النيلها ؟
يعنى أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف ، فقولنا ش النيل إذا اعتبرنا
عدد شينه كان ألف نيل ، انتهى » (١١) .

وكما فضلت حمص أيضا فضلت غرناطة ، ليس على مصر وحدها ،
وإنما على مصر والشام والعراق ، وإنما هى عروس تجلى ، وتلك
البلدان صداقها ، وفى هذا مبالغة ممجوجة تحمل معنى السخرية
والتقليل من شأن هذه البلدان باستخدام الاستفهام « ما » :

« غرناطة مالها نظير ما مصر والشام ما العراق ؟
ما هى الا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق » (١٢)

(٩) النفج ٣٠٦/٢

(١٠) النفج ١٥٧/١

(١١) النفج ١٤٨/١

(١٢) النفج ١٤٨/١

وكما أحس ابن سعيد بالغربة شعر بها أيضا الرحالة ابن جبير حين
شهد العيد في مدينة طنطا بعيدا عن أحبابه فقدم الدمع قربانا لهم
على البعد : « وقال ، وقد شهد العيد بطيننة من قرى مصر :

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة باحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلت لخلي في النوى جد بمدمع فليس لنا الا المدامع قربان » (١٣)

ولم يقتصر الاحساس بالغربة على الأندلسيين الوافدين على مصر ،
وانما شاركهم فيه الشوام فالشيخ محب الدين الحموى في ترجمة الشيخ
اسماعيل النابلسي شيخ الاسلام من مصر ، يكتب اليه اطراء لا يخلو من
حديث عن الغربة وإشارة اليها ، فهو غريب بأقصى مصر ، وقد سكنها
واقام فيها ، ولكن قلبه معلق بالشام وجسمه قد أصابه التبريح ، ومن
ثم فهو يتمنى ثرى بلاده والوصل بها :

« غريب بأقصى مصر أضحت دياره ولكن قلبي بالشام معلق
وقد نسخ التبريح جسمي فهل الى غبار ثرى اعتاب وصل يحقق » (١٤)

ويتبع هذين البيتين بابيات يتمنى فيها الفوز بروضه فيها عيون
النرجس وفيها الوادى والربوة والماء المعين الذى يتدفق حولها ، حيث
يحلوا له العيش ، ويعود اليه النعيم القديم وينظر الجامع المنفرد بصحنه
وجماله . ولعله يشير الى المسجد الأموى فى دمشق ، وحوله أصحابه
كالنجوم الزهر ، تتألق وجوههم بشرا وسعادة .

أما الخياط فقد ترك حبيبه بالشام وقصد مصر ، وبعدت به
الشقة والمسافة . ومن هنا يتمنى ألا تبعد مصر على العاشق :

(١٣) النفح ٤٩٢/٢

(١٤) النفح ٤٠٠/٢

« خلفت بالشام حبيبى وقد يممته مصرا لعنا طسارق
والأرض قد طالت فلا تبعدى بالله يا مصر على العاشق » (١٥).

أما القاضى الفاضل فيظل فى مصر ظامئاً الى ماء الفرات بالرغم
من وجود النيل ، والقلب مشغول بالشام وان لم تجد عيناه بالدموع ،
وقد ترك قلبه هناك محبوبات كثيرات ، ويرى أن صبره سيطول ، وسيكون
صبراً جميلاً ، ويصف الصبر بأنه جميل ليصنع هذه الإشارة التراثية
بوضع الرمزين معا : جميل وبثينة :

« بالله قل للنيل عنى اننى لم أشف من ماء الفرات غليلاً
وسل القواد فانه لى شاهد ان كان طرفى بالبكاء بخيلاً . .
يا قلب كم خلفت ثم بثينة واظن صبرك أن يكون جميلاً » (١٦)

* * *

٢ - الحنين الى مصر فى الغربية :

ومثلما يحن الأندلسيون الى بلادهم ويشعرون بالوحشة والغربة
فى مصر ، يحن المصريون الى موطنهم حين يهجرونه ، ويشاركهم هذا

(١٥) يقول د . احسان عباس فى تعليقه : « فى أمثالنا العامية
بفلسطين : « مصر على المشتاق ما هى بغيدة » وفى البيت تلميح الى
هذا المثل « النفح ٣٩٣/٢ . وفى أمثالنا العامية المصرية نقول : « مصر
ماتبعدش على حبيب » . ونود أن ننبه الى أن المثل هنا يقصد
بمصر القاهرة ، وذلك لطموح أبناء الأقاليم فى الذهاب الى القاهرة .
(١٦) النفح ٣٦/١

الحنين المغاربة والأندلسيون أنفسهم حين يبتعدون عن مصر ، ويبعدون
أن لها جاذبية وسحرا تشد بهما كل من ينأى عنها . وها هو ابن نباته
وهو بالشام يتشوق الى المقياس والنبل :

« ارق له بالشام نيل مدامح يجريه ذكر منازل المقياس
سقى لمصر منازل معمورة بنجوم افق أو ظباء كناس
وطنى سهرت له وشابت لمتى ونعم على عيني هواه ورأسى
من لى به والحال ليس بآيس كدر وعطف الدهر ليس بقاسى
والطرف يستجلى غزالا آتسا بالنيل لم يعتد على باناس » (١٧)

فابن نباته يارق بالشام فتجربى دموعه وتصير تيلا يتذكر المقياس
ومنازله ، عندئذ يدعو الشاعر لمصر بالسقى وبأن تظل منازلها معمورة
بالنجوم والظباء ، أى بالرجال اللامعين والنساء الحسان ، يتذكر
الشاعر وطنه الذى سهر له وشاب شعره من أجله وحبه كامن فى قلبه ،
ويتمنى لو يصل اليه فى حال من الأمل لا اليأس ، والعطف من الدهر
لا القسوة ليستمتع برؤية غزال أنس بالنيل على عكس ما فى باناس
بسوريا ، وهنا يقصد محبوبه المصرى بهذا الغزال الأنس ابن النيل
وابن هذه الأرض الطيبة .

أما أبو عبد الله محمد بن على بن عمر العيدري التونسي الشاطبى
الأصل فيخاطب أحبابه بمصر مؤكدا بكاءه عند أطراف النهار من
أجلهم ، ويتساءل عما لو رأوا هذا البكاء أكانوا سيشفقون لفرط حبه
ووجده ومعاناته بسبب بعده عن ديارهم :

(١٧) النفح ٤٠٧/١

« أحببتنا بمصر لورايتهم بكائى عند أطراف النهار
اكنتم تشفقون لفرط وجدى وما القاه من بعد الديار » (١٨)

إذا كان هذا التونسى الشاطبى الأصل شاطبية Jativa
بالأندلس يحب مصر هذا الحب فان المغاربة كذلك يحبونها ، كهذا
المغربى - ولعله أندلسى - الذى كتب الى الملك الكامل معربا عن حبه
لمصر ومكة والكعبة ، ويخص القاهرة والملك الكامل نفسه ، فى هذه
القصة الطريفة التى يحكيها صاحب النفج : « وحكى أن بعض المغاربة
كتب الى الملك الكامل بن العادل بن أيوب رقعة من ورقة بيضاء ، ان
قرئت فى ضوء السراج كانت فضية ، وان قرئت فى الشمس كانت ذهبية ،
وان قرئت فى الظل كانت حبرا اسود ، وفيها هذه الأبيات :

لئن صدنى البحر عن موطنى وعينى بأشواقها زاهرة
فقد زخرف الله لى مكة بأنوار كعبته الزاهرة
وزخرف لى بالنبى يثربا وبالمك الكامل القاهرة

فقال الملك الكامل قل :

وطيب لى بالنبى طيبة وبالمك الكامل القاهرة

واظن ان المغربى أندلسى لقوله : لئن صدنى البحر عن موطنى ،
فلذلك أدخلته فى أخبار الأندلسيين » (١٩) .

(١٨) النفج ٢٤٢/٦

(١٩) النفج ٣٢٦/٤ ، ٣٢٧

٣ - مدح مصر وتفضيلها على غيرها :

مثلما حن الشعراء الى مواطنهم التي انحدروا منها فقد غلبهم الحنين الى مصر ومدحوها ايضا ، ومن ذلك قول الخياط يمدح أهل مصر :

« يا أهل مصر أنتم للعلا كواكب الاحسان والفضل
لو لم تكونوا لى سعودا لما وافيتكم أضرب فى الرمل » (٢٠)

حيث يراهم كواكب الاحسان والفضل ، ويشتق من الكواكب معنى السعود والتفاؤل وهو لهذا جاءهم على الرغم من وعورة السير فى الرمال وصعوبة الرحلة ووعثاء الطريق . أما ابن الفارض فيعقد مقارنة بين دمشق ومصر ، ومثلما فضلت بلدان على مصر نجده - على العكس - يفضل مصر على الشام او دمشق (جلق) فعلى الرغم من ان دمشق جنة لمن اراد ان يتفاخر أو يتباهى ، فقد كان من الممكن ان تصل الى الشموخ والقمة لولا ما بها من وباء ، واذا قيل ان نهر بردى هو كوثرها الغالى ، فاننى اقول انه غال بموتها ، ويعقد الشاعر فى هذا المجال جناسات كثيرة ، منها هذا الجناس التام بين « وباهى - وباهى » وكذلك بين : « برداها - برداها » . وهكذا يمهد الجول للانتقال الى مدح مصر فهي وطنه وفيها وطره وحاجته ومشتهى نفسه ، وعينه لا تسكن الى غيرها ولو حدث ذلك فان شيئا غريبا قد حدث ، ولذا فان الأمر يسترعى الانتباه ويقتضى التساؤل ، ويجانس جناسا تاما بين سلاها وما سلاها :

« جلق جنة من تاه وباهى ورباهى اربى لولا وباهى
قال غال : بردى كوثرها قلت غال برداها برداها

وطنى مصر وفيها وطرى ولنفسى مشتهاها مشتهاها
ولعيني غيرها ان سكنت يا خليلي سلاها ما سلاها « (٢١)

ومصر كذلك تفخر على دمشق بأن فيها الروضة وان دمشق
لو رأت قوس الروضة لعادت مخذولة وارتد سهمها الى نحرها ، هكذا
يصوغ النواجى هذين البيتين اللذين يرى المقرئ أنهما من باب تفضيل
الوطن من حبه ، ويروى معهما ثلاثة أبيات للوداعى فى الحنين والشوق
الى مصر ونيلها ورجالها ، يقول المقرئ : « واما قول النواجى سامحة
الله تعالى :

مصر قالت : دمشق لا تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتى منه راحت بسهمها

فهو من باب تفضيل الوطن من حبه ، ومنه قول الوداعى :

رو بمصر وبسكانها شوقى يوجد عهدي الخالى
وارو لنا يا سعد عن نيلها حديث صفوان بن عسال
فهو مرادى لا يزيد ولا « ثور » وان رقاً ورقاً الى « (٢٢)

ويضيف المقرئ بيتين للشهاب الحجازى ويرى أنهما من نفس الباب
او على نفس النمط اى تفضيل الوطن لحبه ، فالشهاب الحجازى حينما
قيل له : ان دمشق قد زهت بزهرها ، وطلب اليه ان يمضى ليشاهد
جوزها ولوزها رفض ، ورفض ان يبدل بلدته بها ورفض كذلك زهرها
ولوزها ، فهو رفض على سبيل الاعتزاز بالوطن :

(٢١) النفح ٤٠٦/٢ ، ٤٠٧

(٢٢) النفح ٤٠٤/٢ ، ٤٠٥

« قالوا دمشق قد زهت لزهرها فامض وشاهد جوزها ولوزها
فقلت لا ابدل بلدتي بها ولست ارضى زهرها ولوزها » (٢٣)

وقد شغلت هزم الأمور الناس الى درجة ممقوته ، حتى وصلت
الى صورة من صور النقائص في بعض الأحيان ، فاذا قال ابن تباته
عن حمامات الشام انها دون القلتين رد العز الموصلى منتصرا لحمامات
الشام بنفس المعنى :

« اليك حياض حمامات مصر ولا تتكثري عندي بمين
حياض الشام أحلى منك ماء واطهر وهى دون القلتين

وهذان البيتان جواب منه عن قول ابن نباتة :

أحواض حمام الشام الا اسمعى لى كلمتين
لا تذكرى أحواض مصر فانت دون القلتين » (٢٤)

وتدور مساجلة بين وادى جلق وبحر النيل ، ويتناول المعنى أكثر من
شاعر أو ناظم :

« قد قال وادى جلق للنيل اذ كسروه اعين جبهتى لك ترفع
فاجاب بحر النيل لما أن طغى عتدى مقابل كل عين اصبع » (٢٥)

وشبيه به يقول آخر :

« ماذا يفيد المعنى من الأذى المتتابع
بمصر ذات الأيادى ونيلها ذى الأصابع » (٢٦)

(٢٣) النفج ٤٠٥/٢

(٢٤) النفج ٤٠٤/٢

(٢٥) النفج ٤٠٥/٢

(٢٦) النفج ٤٠٥/٢

ولكن القضية سرعان ما تحسم بطريقة فكهة يتبين منها ميل قائل
البيتين التاليين الى الشام ، حيث يجعل اللغظ الدائر بين حلب والشام
ومصر ، ويأتى هو ليزعم لنفسه الانصاف فيقول « خير الامور الوسط »
والوسط فى هذا البيت هو الشام ، فهى وسط بين حلب ومصر :

» فى حلب وشامنا ومصر طال اللغظ
فقلت قول منصف خير الامور الوسط « (٢٧)

لكن لسان الدين الخطيب فى خطبة كتابه فى المحبة يحسم هذه
القضية لصالح مصر ، « فوقع للحجة المصرية التسليم ، وقالت السنة
الاقلام معرية عن السنة الاقاليم :

سلمت لمصر فى الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه
من ينكر دعواى فقل عنى له تكفى امرأة العزيز من عشاقه « (٢٨)

* * *

٤ - ذم مصر واهلها :

لعل ابن سعيد - الذى اكثر من الحديث عن مصر فى شعره ونثره -
هو الذى لمس ايضا تلك الجوانب السلبية التى قد تضايق الزائر لمصر ،
ولعل من اطرف هذه المضايقات ما حدث له عندما اراد زيارة القسطنطينية
فركب حمارا بعد تأقف ، ولكن المكاري أشار الى الحمار فطار به
واثار غبارا اسود فى عينيه ودنس ثوبه ، فحكى لنا هذه القصة
بالنثر والشعر معا :

(٢٧) النفج ٤٠٥/٢

(٢٨) النفج ٢٨٠/٦

« لما استقررت بالقاهرة تشوفت الى معاينة الفسطاط ، فسار
معى اليها أحد أصحاب القرية فرايت عند باب زويلة من الحمير المعدة
لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لى بمثلها فى بلد ،
فركب منها حمارا وأشار الى أن اركب حمارا آخر ، فأنفت من ذلك
جريا على عادة ما خلفته من بلاد المغرب ، فاخبرنى أنه غير معيب
على أعيان مصر ، وعايئت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة
يركبونها ، فركبت ، وعندما استويت راكبا أشار المكارى الى الحمار ،
فطار بى ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ، ودنس ثيابى ،
وعايئت ما كرهته ، ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على
قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى ، وقعت فى تلك الظلمة الماثرة من
ذلك العجاج ، فقلت «(٢٩) .

وهذه الحادثة - التى نرى شبيها لها الآن فيما يحدث عند سفح
الأهرام مع السائحين وزائرى الآثار - يقصها علينا ابن سعيد فى شعر
طريف :

« لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار ، وكحل الغبار
وخلفى مكار يفوق الرياح لا يعرف الحق منها استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى الى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقى رواق الثرى والحد فيه ضياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته ، وقلت له : « احسانك ان تتركنى أمشى
على رجلى ، ومشيت الى أن بلغتها ، وقدرت الطريق بين الفسطاط
والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين »(٣٠) .

(٢٩) النفج ٣٣٩/٢

(٣٠) النفج ٣٤٠/٢

والطريف فى الأبيات السابقة هو استخدام كلمات مثل « البوار » و « يرعوى » و « استطار » وتعبيرات مثل : « زكوب الحمار ، وكحل الغبار » ، « سجدت سجود العثار » والتصوير الفنى الرائع فى البيت الأخير الذى نرى فيه الثرى رواقا ممدودا فوق الشاعر ، وضياء النهار دفيناً فى لحد بسبب ظلمة الغبار المثار وكثافته .

ربما تركت هذه الحادثة انطباعاً سيئاً فى نفس ابن سعيد ، فجعله - عندما يصف القاهرة - يركز حديثه حول ضيق الدروب وظلمتها وكثرة التراب والأزبال ، وجوها الكدر المغبر بسبب التراب الأسود الذى يقبض النفس :

« وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من نصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك ، ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة انها فى أرض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل ، لئلا يصادرها ويأكل ديارها ، واذا احتاج الانسان الى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التى خارج السور الى موضع يعرف بالقس ، وجوها لا يبرح كدرا بما تنثره الأرض من التراب الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر على رفاقى من الحض على العود فيها :

يقولون سافر الى القاهرة ومالى بها راحة ظاهرة
زحام وضيق وكرب وما تثير بها أرجل سائرة

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا ، وجوا مغيرا ،
فتنقبض نفسه ، ويفر أنسه «(٣١) .

لا شك أنه التبرم الشديد والسخط على القاهرة وما بها من مظاهر
سيئة وقد كان ذلك دافعا للشاعر الى الضيق بمصر كلها وبأهلها ،
مما جعله يهجوهم هجاء مقذعا استمدّه من طبيعة مصر التي تقل فيها
الأمطار ، فجعل قلة المطر بخلا من السحب ، ينسحب على ناسها وأهلها
الذين أحس بينهم أنه معذب ، بهذه الطريقة ينكر على نفسه الإقامة
في مصر :

كم ذا تقيم بمصر معذبا بذويها
وكيف ترجو ندامهم والسحب تبخل فيها «(٣٢)

واذا كان هناك من يشارك ابن سعيد سخطه على مصر وبرمه بها
فليس هنالك خير من ابن عتبة الاشبيلي الذي رحل من الأندلس الى
المشرق « وكان فارق اشبيلية حين تولاهما ابن هود ، واضطربت بفتنة
الأندلس نارا ، ولما قدم مصر هاربا من تلك الاحوال تغيرت عليه البلاد ،
وتعدلت به الاحوال ، فلما سئل عن حاله ، بعد بعده عن أرضه
وترحاله ، بادر وأنشد :

أصبحت في مصر مستضاما	أرقص في دولة القـرود
واضيعة العمر في أخير	مع النصارى أو اليهود
بالجد رزق الانام فيهم	لا بذوات والا جـدود
لانبصر الدهر من يراعى	معنى قصيد ولا قصود
أود من لؤمهم رجوعا	للغرب في دولة ابن هود «(٣٣)

(٣١) النفخ ٣٤٦/٢

(٣٢) النفخ ٣٥٠/٢

(٣٣) النفخ ٦٦٤/٢

لا شك أن هذه البرم الشديد بمصر والهجاء اللاذع للمصريين انما كان رد فعل طبيعى لمعاناة الشاعر الذى هرب من اضطهاد ابن هود فوجد فى مصر من هم أشد من ابن هود ، وتعبيره « أصبحت فى مصر مستضاما » هو مفتاح كل هذه المسألة التى تجعله يصمم الدولة المصرية بأنها دولة القروء ، وان دوره فيها هو دور المهرج والمصفق : « ارقص فى دولة القروء » ، لا المشارك والمواطن الجاد ، ولهذا تنتهى أبياته اللاذعة بأمنية يتمناها وهى العودة الى الغرب فى دولة ابن هود هربا من لؤم هؤلاء المصريين .

خاتمة

فى اطار حديثنا عن العلاقة بين مشرق العالم العربى الاسلامى ومغربه تتبعنا صورة مصر فى كتاب « نفح الطيب » الذى صنفه احمد ابن محمد المقرئ القرشى فى مصر . وقد رأينا أن الأندلسيين قد درجوا على اطلاق أسماء بعض المدن أو البلدان الشرقية على مدن اندلسية لانهم وجدوا شبةا بين هذه وتلك أو لأن الجنود الفاتحين من تلك البلدان قد استقروا فى هذه المدينة بعينها ، وجريا على هذه السنة نزل أهل مصر تدمير - التى هى مرسية - وأطلق عليها اسم مصر لهذا السبب ، وللشبه بينها وبين مصر فى انبساط أرضها وفيضان النهر بها ، وزراعتها التى تقوم على نفس طريقة زراعة الأرض فى مصر .

وقد تكونت لدينا صورة لمصر فى الاندلس أو - على وجه التحديد - فى « نفح الطيب » شارك فى لم شتاتها الاندلسيون والمغاربة ثم المصريون وبعد ذلك الشوام والعراقيون وغيرهم ممن نزلوا مصر مهاجرين أو نازحين ، ومنهم من درس بالقاهرة والاسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، أو تولى القضاء فيها . وقد تتبعنا هذه الصورة التى تجلت لنا فى جانبين : أما الأول فهو التصوير الخالص لمصر ومعالمها الحضارية ، وأول معلم طبيعى يشد انتباه معظم من تحدثوا عن مصر أو كتبوا فيها شعرا هو النيل ، ذلك النهر العظيم الذى يهب الحياة لأرض مصر والمصريين ، ولم يقتصر الحديث عن النيل على الصورة الخارجية وإنما امتزج بمشاعر الشاعر وأحاسيسه ، ففيضانه دموع الشاعر واضطراب موجه خفقان قلب الشاعر أيضا . ورأينا النيل كذلك يرتبط بالمنظر الطبيعى العام لأرض مصر الخضراء بحيث تحول شاطئى مصر الى جنة ، بل ان النيل نفسه ليفيض من جنة الخلد ليهب الحياة للبشر على هذه الأرض ، وتراوح التعبير بين المباشرة والتصوير المجازى .

ثم يلقانا النيل أيضا في الحديث عن الفسطاط وأهم شاعر يحدثنا عن الفسطاط هو ابن سعيد الذى يعجب بها وأهلها ويراهم الطف من أهل القاهرة . ويدخل ابن سعيد الخليج الذى بين القاهرة ومصر ويحدثنا عما يحدث فيه من سكر وعريضة قد يؤديان الى القتل فى بعض الأحيان ، ولكن الطبيعة على جانبى الخليج تشد ابن سعيد فتلهمه بعض الشئ عن ليل الخليج فيرسم لوحات فيها تشخيص وتجسيد وبث للحياة الانسانية فى عناصر الطبيعة . تأتى بعد ذلك جزيرة الروضة التى كانت تسمى الصالحية حيث يتوقف عندها الشاعر مع وفاء النيل ووصول الماء اليها كأنما هو زائر عاشق يروم الوصول ، وتعرض لنا الجزيرة فى شتى ألوانها وأبهى حللها تحت جنح الليل ويعقد ابن سعيد علاقة بين الجزيرة وعناصر الطبيعة الأخرى فالبرد يقبل ثغر سورها والأنوار تتضاحك فى جنباته ، والعجائب تظهر على صفحة النيل الخ .

أما القاهرة فمدينة حديثة بناها الفاطميون ، عظيمة لكن اسمها أعظم منها وقد أعجب ابن سعيد فيها ببركة الفيل وأرض الطبالة ، ووصفهما . وإلى جانب بركة الفيل تذكر أيضا بركة الحبش التى وصفها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، وقد وصف الرصد الذى بظاهر مصر ، ووصف القصور أيضا ، ومن ذلك وصفه لقصر يسمى « منزل العز » الذى يكاد يستلهم فيه تصوير البحترى لايوان كسرى حيث الرسوم المنقوشة والمنحورة أو التماثيل البارزة تتحرك فى ساحة قتال .

وفى ختام هذه المعالم التى صورها الشعراء فى مصر نرى الاهرام التى لا أدرى لماذا قل شعرهم فيها . ربما كان ذلك راجعا الى أن الطبيعة والحياة الحضارية الأندلسية قد طبعت هؤلاء النازحين الى مصر بطابعها الخاص الذى جعلهم يهتمون أكثر بهذين الجانبين فى مصر عند وصولهم اليها . أما الشعر الذى قاله أبو الصلت أمية فى وصف الهرمين

فقد أتى فاترا باردا على عكس الشاعر المصرى ظافر الحداد الذى امتلأ شعره بالتصوير الفنى والمشاعر التى بثت الحياة فى الجمادات .

الجانب الثانى فى صورة مصر فى الاندلس تلمسناه فى تصوير العواطف المختلفة بل والمتضاربة أحيانا ، حيث يشعر المهاجر بالوحشة والغربة والحنين الى وطنه الاندلسى ، فابن سعيد يحن الى المغرب ، يحن الى اندلسه بمدنها وطبيعتها ولياليه بها وملاعب صباه ، وحين يصل الأمر الى عقد مقارنة بين النيل ونهار الوادى الكبير فى اشبيلية نجد النيل لا يساوى شيئا أمام ذلك النهر ذى النغمات التى تطرب - على حد قوله - ويعرض الشاعر لحالتيه الماضيه فى الاندلس والحاصرة فى مصر لينتصر للماضى ويحن اليه لأنه بمصر يعاني من الاهمال والتجاهل الشديد بل انه ينادى بالمغربى شأنه شأن أى انسان خامل أو عاوى وتمتلىء نفسه بالسخط والتذمر حتى ليقرر العودة الى بلاده . ولا يفق ابن سعيد وحده فى التقليل من شأن النيل والانتصار لانهار أخرى اندلسية فها هو لسان الدين بن الخطيب يقلل من شأن النهر العظيم أمام نهر غرناطة الصغير البائس ، الشنيل . وكما فضلت حمص فضلت غرناطة ليس على مصر وحدها ، بل على مصر والعراق والشام . وقد كان السبب فى ذلك كله نفسيا يرجع الى ارتباط الانسان النازح لا شعوريا بوطنه ، والى جانب من ذكرنا يوجد الرحالة ابن جبير كذلك . وقد كان هذا الاحساس بالغربة قاسما مشتركا بين الاندلسيين وغيرهم من الوافدين على مصر . والى جانب هذا كان هناك احساس آخر عكس بالحنين الى مصر فى البعد عنها ، وهو احساس لم يقتصر على المصريين بل شاركهم فيه المغاربة والاندلسيون . فمثلما يتشوق الشاعر المصرى ابن نباته وهو بالشام الى مصر والمقس والنيل ، فان ابا عبد الله محمد ابن على بن عمر العبدري التونسى الشاطبى الاصل يشترق الى مصر ويذرف الدموع على احبابه .

والى جانب الحنين الى الاندلس أو الحنين الى مصر تراوح الشعراء فى مدحهم لمصر وتفضيلها على غيرها ، و ذمهم لها ولاهلها . ففى المجال الأول نراهم يمدحون اهل مصر ويعقدون مقارنات بين مصر والشام ليفضلوا مصر . وان كان المقرئ يرى أنه من قبيل تفضيل الوطن وحبّه . ولكن هذه الأمور النى شغلت الناس الى درجة أصبحت معها مردولة وصلت الى ان تتخذ شكلا من أشكال النقائص بين البلدين .

أما المجال الثانى وهو ذم مصر فقد رأيناه عند ذلك الرجل الذى أكثر من ذكر مصر والحديث عنها وهو ابن سعيد الذى لم يتوقف عند الجوانب الايجابية فى مصر وحسب ، بل لمح بعينى الناقد تلك الجوانب السلبية التى وجدت فى مصر منذ ذلك الحين ، حيث يقع السائح نى أحابيل الحوذى والمكارى . ولكنه الى جانب هذه الحادثة الطريفة لاحظ ما بالفاعرة من أوساخ وقاذورات وأزبال وجو مترب أسود ، وانتقد ذلك كله وأحس بالضيق الشديد فى القاهرة. مما جعله يصب سخطه على أهلها ، وقد شاركه فى ذلك ابن عتبة الاشبلى الذى جاء هاربا من ابن هود وفتنته فلاقى بمصر العنت والذل وصار راقصا فى « دولة القروء » .

لا شك أن زاويتي الرؤية اللتين تناولنا من خلالهما الموضوع قد بينتا لنا كل جوانب صورة مصر فى « نفح الطيب » من الناحية الخارجيه؛ أى تصوير مصر ووصفها ووصف مبانيها وآثارها ومعالمها ، ومن الناحية الداخلية النفسية فى تلك المشاعر المتضاربة التى لا تخلو منها النفس الانسانية .

الموضوع	الفهرس	الصفحة
- المقدمة	• • • • •	٣
١ - المقرئ وكتابه	• • • • •	٥
٢ - مدن الأندلس واسماء المدن الشرقية	• • • • •	١٢
٣ - صورة مصر	• • • • •	١٥
أولا : تصوير مصر	• • • • •	١٦
١ - النيل	• • • • •	١٦
٢ - النيل وجنة الخلد	• • • • •	٢٠
٣ - النيل والفسطاط	• • • • •	٢٣
٤ - الخليج	• • • • •	٢٦
٥ - جزيرة الروضة	• • • • •	٢٩
٦ - القاهرة	• • • • •	٣٢
٧ - الأهرام	• • • • •	٣٩
ثانيا : تصور العواطف	• • • • •	٤٣
١ - الغربة والحنين الى الأندلس	• • • • •	٤٣
٢ - الحنين الى مصر فى الغربة	• • • • •	٥٠
٣ - مدح مصر وتفضيلها	• • • • •	٥٣
٤ - ذم مصر وأهلها	• • • • •	٥٦
- خاتمة	• • • • •	٦١

رقم الايداع ١٩٨٨/٥٠٨٨

دار التوثيق والنشر
للطباعة والمطبوعات
الأزهر، أحياء النور
بجوار جامع الأزهر
ت ٩٩٥٢٠٤ القاهرة

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com